# عبد الحليم عثمان ود زياد..
# الذي عرفته

التجاني صلاح عبدالله المبارك



الطبعة التمهيدية

١٤٤٥هـ_ ٢٠٢٤م

# عبد الحليم عثمان ود زياد..
# الذي عرفته

التجاني صلاح عبدالله المبارك



الطبعة التمهيدية

١٤٤٥هـ_٢٠٢٤م

# الاهداء

إلى روح أخي وصديقي "عبد الحليم عثمان دفع الله ود زياد "

كنت أخا وروحا ..

لك الرحمة والمغفرة .. وأسال الله أن يجمعنا بك في جنته

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين ، محمد بن عبد الله صلوات ربي وتسليماته عليه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه مجموعة مقالات تتناول عدة أحداث سياسية واقعة ، وكان من إرادة الله وقدره أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى أخي وصديقي " عبد الحليم عثمان دفع الله ود زياد " في أوائل هذا العام 2024 بعد معاناته من علة قلبية أصابته، فاجتمعت علينا أحزان الحرب الدائرة حاليا في السودان، وموت أخي وصديقي " عبد الحليم " ، فكتبت في وداعه كلمات وسطور ، ضمنتها دفتي هذا الكتاب ، وإني لأرجو منك أيها القارئ الكريم أن لا تنسانا من صالح دعائك، وأن تدعو لي

ولأخي "عبد الحليم" بالرحمة والمغفرة،
ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

التجاني صلاح عبد الله المبارك

الخرطوم شتاء 2024م

## مقاربة الإنقلابات العسكرية الإفريقية والدروس المستفادة عربيا

بات من الأشياء التي تستدعي النظر والتأمل في دورة أنظمة الحكم في القارة السمراء في العقد الأخير على الأقل، هو حدوث موجات متتالية ومتعاقبة من الانقلابات العسكرية التي أطاحت برؤساء منتخبين وآخرين تسنموا السلطة قسرا سنين عددا، ولأن حدوث هذه التغييرات المتتالية في ظروف تكاد تكون متشابهة نوعا ما، فإنه من المفيد متابعة هذه المتغيرات واستخلاص ما يمكن من الدروس المستفادة منها.

آخر هذه الانقلابات هو إعلان مجموعة عسكرية في الغابون الأيام القليلة الماضية وضع الرئيس" علي بونغو" قيد

الإقامة الجبرية؛ بعد ساعات قليلة من إعلان لجنة الانتخابات فوزه بولاية رئاسية ثالثة، ليرتفع بذلك مجموع الانقلابات العسكرية في القارة الإفريقية إلى8 انقلابات عسكرية في غضون ثلاثة سنوات، وما يقارب 45 انقلاب أو محاولة انقلابية منذ عام 2012.

يعرف الانقلاب العسكري بأنه محاولة فرض واقع جديد في الدولة باستخدام القوة الصلبة، نتيجة لاخطاء جسيمة ومتراكمة كان السبب الرئيس والأساس فيها هو النظام السابق وأركانه، وكانت محصلتها الكارثية هي الانهيار الكامل في كافة مرافق الدولة اقتصاديا وأمنيا وسياسيا ومجتمعيا.

ويعرف أيضا بأنه عملية عسكرية سريعة ودقيقة لإزاحة قائد الدولة من منصبه، واستبداله بغيره، سواء كان قائد الانقلاب نفسه، أو من يختاره هذا ويعينه لقيادة الدولة، أو أنه مسار مدروس وخطير يتم من خلاله تحييد قوى الجيش ووسائل الإكراه السياسي

الأخرى، كما يتم فرض حالة من السلبية على القوى السياسية .[1]

مما يستدعي التأمل والنظر أيضا في موجات الانقلابات العسكرية المتلاحقة في القارة الإفريقية هو عمليات الإحلال والإبدال وتبادل الادوار والنفوذ التي تتم من قبل الفواعل، لتشغل وتسد الفراغ في دور بديل على الدولة التي تتعرض للانقلاب العسكري، بحجج استعادة الديمقراطية وبسط الأمن، وفي ظل خشية زيادة موجات الإرهاب الذي تمثله فزاعة الإسلام السياسي (كما يرون) من جهة ثانية، واستغلال الثروات والموارد الطبيعية مثل النفط والذهب واليورانيوم الذي تعتمد عليه في تشغيل المفاعلات النووية في أوروبا من جهة ثالثة.

حذرت صحيفة التليغراف في افتتاحيتها أن القوى الغربية تشعر بالتوتر، خاصة أن أعداءها نجحوا في استغلال حالة عدم الاستقرار المتزايدة في أجزاء من أفريقيا. وفي

بعض البلدان قامت روسيا ومجموعة فاغنر التابعة لها بملء الفراغ الذي خلفته القوى الاستعمارية السابقة مثل فرنسا، وحصلت روسيا على صفقات مربحة من الموارد الطبيعية مقابل مساعدة الأنظمة الجديدة في الحفاظ على سيطرتها على البلدان الأفريقية، لكن تظهر في الخلفية معركة أعظم لتعزيز النفوذ على مساحات واسعة من العالم بين الأنظمة الديمقراطية والأنظمة الاستبدادية. [2]

وإن اختلفت الحدود الجغرافية، فقد تكون العوامل والأسباب المفضية للانقلابات في القارة الإفريقية متشابهة نوعا ما، فعمليات تزوير الانتخابات الرئاسية في الغابون التي كان المرشح "أوسا" قد تحدث عنها متهما معسكر "بونغو" بإدارة عمليات تزوير قبل ساعتين من إغلاق مراكز الاقتراع، ومؤكدا فوزه بالانتخابات ومطالبته لتنظيم تسليم السلطة دون إراقة دماء، في وقت كان الجيش متأهبا لوضع حد لحالة

الاحتقان التي بدأت قبل الانتخابات، تتشابه مع أنظمة أخرى تقتلع فيها الحكومة الديمقراطية، ويودع الرئيس المنتخب السجون، ويعطل الدستور لحين إجراء انتخابات رئاسية مبكرة.

ولأن القارة الإفريقية توجد بها جماعات جهادية عديدة مثل جماعة بوكو حرام وتنظيم الدولة الاسلامية والقاعدة، وتحاول فرض نظام جديد وامارة اسلامية على منطقة الساحل الإفريقي والتوغل في القارة، فقد كان بسبب من فشل الحكومات الإفريقية في صد هذه المجموعات عاملا من عوامل السخط الشعبي، وإندلاع الانقلابات العسكرية، في دول تعاني النفاق السياسي وتزوير نتائج الانتخابات، فضلا عن والفقر والمجاعات والبطالة والانفجار السكاني.

ففي بوركينا فاسو كانت أسباب الانقلاب الثاني هو عدم قدرة القوات المسلحة على مواجهة الفصائل الجهادية

الناشطة في شمال وشرق البلاد، وهي نفس الأسباب التي أدت إلى الانقلاب الأول، وذات السبب في دولة النيجر التي لم تكن القوات الفرنسية فيها تقاتل الجهاديين خدمة للنيجر وشعبها، لكن لمصالح فرنسا الكولونيالية في تأمين مناجم الذهب واليورانيوم الذي تعتمد عليه بشكل أساسي في تشغيل مفاعلاتها النووية.

ولأن القارة الإفريقية تضم في باطنها ثروات ضخمة من الموارد الطبيعية مثل الذهب واليوارنيوم والنفط، فقد كان ليس عدم استغلالها لمصلحة البؤساء الأفارقة هو ما أدى إلى زيادة السخط الشعبي، لكن استغلال ونهب تلك الثروات من الفواعل التي تتذرع بذريعة استعادة الديمقراطية وتحقيق الأمن كان عاملا من عوامل اندلاع ووقوع الانقلابات العسكرية.

ورغم الموارد الطبيعية الضخمة التي تتمتع بها القارة الإفريقية والتي يشكل معظمها عنصرا أساسيا في

العديد من الصناعات الثقيلة في أوروبا والصين والولايات المتحدة الأميركية وآسيا، إلا أن سكان معظم دول القارة البالغ عددهم نحو 360 مليون نسمة لم ينعموا بأي نوع من الاستقرار الأمني أو السياسي أو الاقتصادي، إذ يعيش أكثر من 55 في المئة منهم تحت خط الفقر، كما شهدت دولا مثل سيراليون وليبريا ورواندا ومالي حروبا ونزاعات أهلية استمرت عشرات السنوات وراح ضحيتها أكثر من 13 مليون قتيل وشرد بسببها نحو 33 مليونا .ووفقا لخبراء في الشأن الإفريقي، فإن ضعف الاقتصادات الإفريقية والبيئة الأمنية المضطربة، إضافة إلى عدم احترام المواثيق الديمقراطية ولجوء العديد من الحكام المدنيين لتمديد فترات حكمهم، جميعها عوامل تثير الغضب الشعبي وتهيئ بيئة الانقلابات العسكرية التي تزيد الأمر تعقيدا. [3]

يرجع الدكتور "محمد يوسف الحسن"، الباحث السياسي ، تنامي ظاهرة

الانقلابات العسكرية في القارة الأفريقية، لا سيما في منطقة الغرب الأفريقي ودول جنوب الصحراء إلى جملة من العوامل، في مقدمتها الأبعاد الاقتصادية وهشاشة المؤسسات السياسية، إضافة إلى تنامي الشعور الوطني المناهض لهيمنة القوى الاستعمارية القديمة.لكن" الحسن" يضيف كذلك في تصريحات أن الانقلابات المتكررة في القارة الأفريقية لا تعتمد فقط على العوامل الداخلية المتعلقة بتلك الدول التي تشهد انقلابات، لكنها ترتبط كذلك بتغير خريطة النفوذ الدولي في القارة، لافتا إلى أن معظم الدول التي شهدت انقلابات في السنوات الأخيرة كانت تخضع للهيمنة الفرنسية.[4]

وبعدما ذكرنا جزءا مما جرى في الداخل الإفريقي فهل تصل موجات التغيير العسكري الإفريقي إلى العالم العربي الذي شهد موجتين من موجات الربيع العربي الثوري؟ هذا ما سنحاول إسقاطه

ومقاربته في ما تبقى من المقال، فما ثار ضده العسكر الافريقي مثل نهب ثروات البلاد واستباحتها من الفواعل بل من الأنظمة المستبدة والنخب الحاكمة، وعدم القضاء على التنظيمات المتطرفة، والتزوير في الانتخابات الرئاسية، وتفشي الظلم والإستبداد السياسي يكاد يكون في اي بقعة من بقاع العالم.

الإستبداد هو صفة للحكومة المطلقة العنان، فعلا أو حكما، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب، ولا عقاب محققين، ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة، لأنها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة. [5]

والإستبداد السياسي هو الانفراد بالسلطة، ومعنى استبد به: أي انفرد به يقال: استبد بالأمر، يستبد به استبدادا إذا انفرد به دون غيره. [6]

ويكتسب الإستبداد معناه السيئ في النفس من كونه انفرادا في أمر مشترك،

فإدارة الأمة وولايتها تعود إليها برضاها، فإذا قام أحد وغلب الأمة وقهرها في أمر يهمها جميعا، وانفرد بإدارتها دون رضاها، فقد وقع في العدوان والطغيان.وهذا الاستيلاء والسيطرة على أمر الأمة دون رضى منها يفتح أبواب الظلم والفساد وضروب العدوان وهو ما يسمى الاستبداد السياسي. [7]

ولأن الأنظمة المستبدة السلطوية هي السبب الرئيس في ذات السخط الشعبي الذي ذكرناه آنفا، فإنه يكاد يكون متشابها، ليس بسبب من التلاعب والتزوير في نتائج الانتخابات الرئاسية وحدها، لكن بما تمارسه ذات الأنظمة من أساليب القمع والعنف، والتعذيب والتصفية الجسدية احيانا، وهذا في حد ذاته يمثل نوعا من الفشل الإستراتيجي وسوء الحوكمة التي يرتد أثرها فيما بعد على الانظمة والنخب الحاكمة المستبدة.

إذا نظرنا إلى العالم العربي من مرآة الأنظمة الحاكمة، فسوف نجد أن

معظمها لا يمثل شعوبه ولا يتمتع بالحد الأدنى من الكفاءة المهنية المطلوبة. ولأنها لم تصل إلى السلطة عبر انتخابات حرة نزيهة، فمن الطبيعي أن تدرك أن بقاءها واستمرارها يتوقفان إما على دعم قوى خارجية أو على سطوة أجهزتها الأمنية في الداخل، أو على كليهما معا، وأن تنشغل بجمع وتكديس الثروات أكثر من انشغالها بأمن ورفاهية شعوبها. [8]

ولأن مكافحة الإرهاب وتجفيف منابعه ،وضرب التنظيمات المناوئية من قبل الأنظمة السلطوية المستبدة في المنطقة، اتسم بالعنف والغشم لذا كان ذات المسمى هو ذريعة للفواعل لزيادة بسط الهيمنة الاحادية على المنطقة، ومحاربة الدول المارقة مثل العراق وايران وليبيا (كما تصف الفواعل)، ونهب الثروات الطبيعية باعتبارها مصالحا مشروعة لديهم.

شكلت عقيدة حرب "الإرهاب" وفرض "الديمقراطية" الاستراتيجية المفضلة للتدخلات الاستعمارية في حقبة العولمة

الرأسمالية النيوليبرالية ونظام الأحادية القطبية، وعقب بروز ملامح نظام تعددية قطبية تنامى الإدراك بأن ما يسمى "الإرهاب" الذي أصبح مصطلحا يكافئ الحركات "الجهادية" الإسلامية لا يعدو عن كونه عنفا سياسيا يتغذى على التدخلات الخارجية، فقد أصرت عقيدة مكافحة الإرهاب الأمريكية والفرنسية على عدم التفاوض مع من تصفهم بالإرهابيين. [9]

بعد هذا فإن غاية السلطة ومقصدها ليست السلطة المطلقة، أو إقامة الأنظمة الاستبدادية مثل ما هو منظور، لكن غايتها هي تطبيق شرائع الله، وأن يقوم الناس بالعدل لا بالظلم، والمشاركة لا الإقصاء، أما أن تكون السلطة غاية في ذاتها والاستبداد مقصدا، فهذا مما لا يكون إلا عند غير الأسوياء.

"جورج اورويل" يقول في روايته (1984): إن مصالح الآخرين لا تعنينا في شيء، فكل همنا محصور في السلطة، نحن لا نسعي وراء الثروة ولا الرفاهية

ولا العمر المديد ولا السعادة، وإنما نسعى وراء السلطة، والسلطة المطلقة فقط، ولسوف تفهم عما قريب ماذا نعني بالسلطة المطلقة؛ إننا نختلف عن الأشكال الكثيرة من حكم القلة التي وجدت في الماضي، لجهة أننا نعرف ما نفعل، أما الأخرون بمن فيهم هؤلاء الذين كانوا يشبهوننا، فكانوا جبناء ومرائين، لقد بلغ النازيون الالمان والشيوعيون الروس حدا جعلهم جد قريبين منا في مناهجهم، لكنهم لم يمتلكوا من الشجاعة ما يكفي للاعتراف بدوافعهم، لقد كانوا ادعوا بل ربما اعتقدوا انهم بلغوا السلطة وهم لها كارهون، وأنهم لن يمكثوا فيها إلا لأجل محدود، وأنه لم يعد يفصلهم شيء عن الفردوس الموعود الذي يحيا فيه الناس أحرارا متساوين، إننا لا نشبه هؤلاء، إننا ندرك أنه ما من أحد يمسك بزمام السلطة، وهو ينتوي التخلي عنها، إن السلطة ليست وسيلة بل غاية، فالمرء لا يقيم حكما استبداديا لحماية الثورة، وإنما يشعل

الثورة لإقامة حكم استبدادي، إن الهدف من الاضطهاد هو الاضطهاد، والهدف من التعذيب هو التعذيب، وغاية السلطة هي السلطة، هل بدأت تفهم ما أقول الآن؟. [10]

**المصادر:**

[1]_زين الدين حماد، كيف تصنع انقلابا عسكريا ناجحا، (المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية، 2016) ص3

[2]_التليغراف: يجب على الغرب القلق بعد انقلابات افريقيا، صحيفة رأي اليوم، 1سبتمبر/ايلول، 2023، (تاريخ الدخول: 2 سبتمبر/ايلول 2023): http://tinyurl.com/urkux7jy

[3]_لماذا تكثر الانقلابات في قارة إفريقيا؟.. الخبراء يجيبون، موقع سكاي نيوز، 30سبتمبر/ايلول، 2022، (تاريخ الدخول: 2 سبتمبر/ايلول 2023): http://tinyurl.com/rwh35n7p

[4]_انقلابات أفريقيا... تحولات داخلية يؤججها التنافس الدولي، صحيفة الشرق الأوسط، 30 أغسطس/ آب، 2023، (تاريخ الدخول: 2 سبتمبر/ايلول 2023): http://tinyurl.com/yp4335xj

[5]_عبد الرحمن الكواكبي ،طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، (بيروت: دار الكتاب اللبناني ، ط. 1،1102) ، ص 12

[6]_أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر)، انظر مادة "بدد"

[7]_ عبد الرحيم بن صمايل السلمي، الإستبداد السياسي،موقع صيد الفوائد ، (تاريخ الدخول: 2 سبتمبر/ايلول2023
)http://saaid.org/arabic/471.htm(

[8]_حسن نافعة ،حاجة العالم العربي الملحة إلى عقد اجتماعي جديد ، موقع النهضة العربية للديمقراطية والتنمية ،23ديسمبر/كانون الأول،2022، (تاريخ الدخول: 2 سبتمبر/ايلول 2023): /http://tinyurl.com/2p83zb9r

[9]_حسن أبو هنية ، الجهادية والاستعمارية والأزمة في منطقة الساحل

الأفريقي،موقع عربي 20، 21اغسطس/آب، 2023، (تاريخ الدخول: 2 سبتمبر/ايلول 2023):
http://tinyurl.com/3bwhn4r2

[10]_جورج اورويل، ترجمة أنور الشامي، رواية 1984، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،ط.2006،1) ، ص 311.

# قراءة في قمة مجموعة بريكس الأخيرة

انعقاد قمة بريكس في دورتها الخامسة عشر في جوهانسبرج الأيام الماضية يعتبر من الأحداث العالمية المفصلية الهامة، ليس لأنها تضم اقطابا وفواعل عظمى مثل الصين وروسيا والهند، بما لها من تأثير ونفوذ سياسي في النظام العالمي فحسب، لكن لتأثير هذه الفواعل على اقتصاديات العالم بشكل مباشر، وباعتبارها رقعة كبيرة تمثل 43% من حجم التعداد السكاني في العالم، وبما تنطوي عليه أيضا هذه الرقعة من نمو اقتصادي متصاعد ومتسارع (وصلت مساهمة مجموعة بريكس في الإقتصاد العالمي إلى 31.5%، بينما توقفت مساهمة مجموعة السبع الصناعية عند 30.7%وربما تكون بذلك قوة اقتصادية عالمية قادرة على منافسة

مجموعة السبع (G7) التي تستحوذ على 60% من الثروة العالمية )وأخيرا لرغبة أغلب الدول في النظام العالمي للانعتاق من الهيمنة والسيطرة القطبية الأحادية المترنحة، التي تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

لذا كان شعار هذه القمة (بريكس وإفريقيا: شراكة من أجل النمو والتنمية المستدامة والتعددية) يعني جذب الداخل الإفريقي، وكل الدول التي شاركت في القمة (نحو خمسين دولة أو أكثر) ومن المتوقع وغير المستبعد اطلاقا ان تكون بريكس أو بريكس+ (باعتبار إنضمام كل من مصر والسعودية والإمارات وإيران وإثيوبيا والأرجنتين) قوة اقتصادية عالمية قادرة على منافسة التكتلات الاقتصادية الإقليمية الأخرى.

تأسست مجموعة بريكس عام 2009 وضمت عضويتها كل من الصين وروسيا والهند والبرازيل وانضمت لاحقا جنوب إفريقيا،

باعتبارها تجمعا وتكتلا اقتصاديا من أهدافه ليس التنسيق في القضايا الإقتصادية العالمية والتحول إلى قوة اقتصادية عالمية ريادية وحسب، بل العمل على خدمة مصالح الدول النامية وتحقيق الرفاهية الاقتصادية لشعوب الدول الأعضاء، وتحقيق السلم والأمن الدائمين، وبتلك الأهداف فإن المجموعة تعمل على إنهاء السيطرة القطبية الأحادية للولايات المتحدة.

في عام 2009 انعقدت أول قمة بين رؤساء الدول الأربع المؤسسة (البرازيل وروسيا والهند والصين) في يكاترينبورغ بروسيا، تضمنت أجندتها آنذاك الإعلان عن تأسيس نظام عالمي ثنائي القطبية، واتفق رؤساء الدول على مواصلة التنسيق في القضايا الاقتصادية العالمية، بما فيها التعاون في النظام العالمي المالي وحل قضايا إمدادات الغذاء.لكن لم يتم في ذلك الوقت مناقشة زيادة المجموعة وإستيعاب أعضاء جدد لها بصورة مستفيضة إلا قليلا،

وبحلول عام 2020 بدأ القادة وكبار الدبلوماسيين في الدول المؤسسة مناقشات لتوسيع المجموعة وفقا للمعايير المنظمة لاضافة الدول، حيث أبدت كل من الجزائر والأرجنتين والبحرين وبنغلاديش، وبيلاروسيا ومصر وإندونيسيا وإيران والمكسيك، ونيجيريا وباكستان والسعودية والسودان وسوريا، وتونس وتركيا والإمارات وفنزويلا وزيمبابوي اهتماما بعضوية بريكس.

ولأن الرئيس الصيني "شي جين بينغ" أكد في كلمته في القمة على دول بريكس أن تنهض بمبدأ التعددية القطبية، وأن تلتزم بالتنمية السلمية والشراكة الإستراتيجية والأمن القومي لدول المجموعة، ودعا لتشجيع الدول على الانضمام إلى مجموعة بريكس لإنشاء عالم أكثر عدالة، لأن عقلية الحرب الباردة لا تزال تشكل مصدر قلق للعالم اليوم، فإن إضافة الدول ذات الثقل الكبير اقتصاديا وسكانيا والتى تبدي إهتماما

كبيرا بالمجموعة مثل مصر والسعودية والإمارات وإيران وإثيوبيا والأرجنتين بما يؤدي إلى تشكيل بريكس + من شأنه يعمل على إيجاد توازن جيو اقتصادي منافسا للمجموعات والتكتلات الاقتصادية الإقليمية الأخرى مثل تكتل مجموعة العشرين (G20) ومجموعة السبع (G7) الصناعية، ورغم أن الهند تتحفظ على زيادة الأعضاء في المجموعة إلا ان الصين صاحبة فكرة التوسع والتمدد فترى وفق معايير المصلحة التي يلتزم بها كافة الاعضاء، أنه إذا تمت إضافة المزيد من الدول الفاعلة والمؤثرة والتي تتمتع بمقدرات اقتصادية هائلة ودرجات نمو مرتفعة، فإن ذلك يخدم المجموعة لإنشاء عالم أكثر عدالة.

مع هذا فقد كانت الأحداث الساخنة والملتهبة في العالم مثل الحرب الروسية الأوكرانية تلقي بظلالها على مخرجات القمة، وحاول فيها الرئيسان الصيني والروسي سحب البساط من تحت الولايات المتحدة التي تشكل قطبا

احاديا مترنحا في النظام العالمي، فقد دعا الأول دول بريكس إلى لعب دور فاعل للوصول إلى تسوية سياسية في المناطق الساخنة لحل النزاعات، خاصة وأن الولايات المتحدة تمثل تهديدا للصين في نزاعها التاريخي مع تايوان رغم المصالح الاقتصادية المتبادلة بين الصين والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، بينما دعا الرئيس الروسي للمطالبة بنظام عالمي منصف قائم على القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، وأشار إلى أن السعي للحفاظ على الهيمنة في العالم أدى إلى أزمة في أوكرانيا بمساعدة الدول الغربية.

ولأن بريكس تضم فواعل عظمى تعد من الدول الأسرع نموا اقتصاديا في العالم، والأرجح ان تتصدر دول بريكس قائمة الدول العشرين الكبرى مع حلول عام 2050 وتحتل الصين المرتبة الأولى والهند المرتبة الثالثة والبرازيل المرتبة الرابعة وروسيا المرتبة الخامسة، فقد يشكل ذلك الصعود

الاقتصادي ورقة من أوراق الضغط القوية للمجموعة.

وفي مسعى المجموعة لإنهاء هيمنة الدولار الأميركي على المبادلات التجارية العالمية، طلب الرئيس "فلاديمير بوتين" تعزيز استخدام العملات المحلية والتخلي عن الدولار ( Dedollarization ) في دائرة التداول العالمي منذ اعتماده العملة المرجع عالميا في مؤتمر "برتين وودز" عام 1944، لذا فقد كان الهيكل المالي لبريكس يعتمد على عنصرين رئيسيين، الأول هو بنك التنمية الجديد (NBD) ومقره شنغهاي باعتباره بديلا للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي(انضمت الإمارات العربية المتحدة وبنغلاديش وأوروغواي رسميا إلى بنك التنمية الجديد التابع للمجموعة أواخر عام 2021، قبل أن تنضم مصر أيضا نهاية مارس/آذار 2023 للمؤسسة نفسها) والثاني ترتيبات احتياطي الطوارئ Contingent Reserve -CRA )

Arrangement) باعتباره إطار جديد لتوفير الحماية من ضغوط السيولة العالمية بما يؤسس للانتقال إلى النظام المالي العالمي الجديد، إضافة لذلك أنشأت الصين البنك الآسيوي للاستثمار في البنية الأساسية (AIIB)، كمؤسسة مالية دولية متعددة الأطراف أما نظام "سويفت" الأمريكي فقد ربطت دول بريكس بين نظام تحويل الرسائل المالية الروسي (SBFC)، ونظام الدفع بين البنوك الصيني (CIPS)، منذ العام 2019 ليكون بديلا متاحا وأكثر جاهزية ويغطي حاجة الدول لنظام تمويل عالمي للمساعدة من اجل تحقيق التغيير.

لهذه التجهيزات والجاهزية لم تكن هذه القمة لدول بريكس هي مجرد قمة روتينية عادية تبدو مختلفة عن غيرها ويرجع ذلك لسببين في تقديري:

الأول هو أن انعقاد فعاليات هذه القمة تم في ظروف حروب وإرهاصات بالحروب في أجزاء واسعة من العالم، فأهوال الحرب الروسية الأوكرانية لم

تنتهي بعد، ووقوع عدة انقلابات متتالية في إفريقيا، ليس إندلاع الحروب ودوران الآلة العسكرية وحسب وإنما ما تبعها من تحولات في النفوذ الغربي في تلك المناطق الملتهبة وإعادة تشكيل للأوراق، لذا فقد كانت قمة بريكس مهمة في توقيت انعقادها لاعادة الأمن والسلم العالمي، واستخراج نمط عالمي جديد يخفت فيه إذا لم يختفي صوت السلاح.

الثاني هو رغبة العديد من الدول في الانعتاق من السيطرة والهيمنة الأمريكية، بما تمثله الإستراتيجية الأمريكية في رؤية المصالح والأهداف الخاصة فقط، وهي رغبة يقابلها تطلع إلى دور التنين الصيني، الذي تمثل سياسة صفر مشاكل ومشروع الحزام والطريق؛ الذي يهتم بالنظر إلى النزاع من ناحية اقتصادية بحته مهما تعاظم وزاد حجم الصراع والنزاع، هي من أهم مزاياه.

## مجموعة فاغنر: البداية والنهاية

على مدى ثلاثة عقود تقريبا من إنهيار الإتحاد السوفياتي في عام 1991 تراجع النفوذ الروسي بشكل كبير في إفريقيا، وبحلول عام 2006 اتجهت الإستراتيجية السوفياتية وقتذاك لتأكيد نفوذها وتجديده في القارة السمراء، ونتج عن تلك الإستراتيجية توقيع 19 إتفاقية عسكرية مع الأنظمة الحاكمة الإفريقية، كان الجزء الأكبر منها في مبيعات السلاح والذخائر، والتوسع في إستخدام شركات الأمن الخاصة؛ مثل مجموعة فاغنر لتقديم الأمن للرؤساء الأفارقة ولتدريب القوات الحكومية، وسحق أي محاولات عسكرية تحاول الإستيلاء على السلطة.

مجموعة فاغنر (بالروسية: Группа Вагнера) هي منظمة روسية شبه عسكرية، وصفها البعض بأنها شركة عسكرية خاصة (أو وكالة خاصة للتعاقد العسكري) وقيل إن مقاوليها شاركوا في صراعات مختلفة، بما في ذلك العمليات في الحرب الأهلية السورية على جانب الحكومة السورية، وكذلك في الفترة من 2014 إلى 2015 في الحرب في دونباس في أوكرانيا لمساعدة القوات الانفصالية التابعة للجمهوريات الشعبية دونيتسك ولوهانسك المعلن عنها ذاتيا. يرى آخرون بما في ذلك التقارير الواردة في صحيفة نيويورك تايمز أن فاغنر هي حقا وحدة تتمع بالاستقلالية تابعة لوزارة الدفاع الروسية و/أو مديرية المخابرات الرئيسية متخفية، والتي تستخدمها الحكومة الروسية في النزاعات التي تتطلب الإنكار، حيث يتم تدريب قواتها على منشآت وزارة الدفاع. ويعتقد أنها مملوكة لرجل الأعمال "يفغيني

بريغوجين" الذي له صلات وثيقة بالرئيس الروسي "فلاديمير بوتين". [1]

مجموعة فاغنر غالبا ما تصف نفسها في وسائل الإعلام الغربية بأنها "مرتزقة" وهي تتألف من قدماء المحاربين المتقاعدين من خدمات أمن الدولة، الذين تتراوح أعمارهم بين 35 و55 عاما، بالإضافة إلى مقاتلين موالين لموسكو من دول الاتحاد السوفياتي السابق وكذلك من حليفتها صربيا .وبحلول ديسمبر/كانون الأول 2017، أضحى عدد عناصر مجموعة فاغنر حوالي 6 آلاف مقاتل، مقارنة بألف مقاتل بداية 2016.وتتراوح الرواتب الشهرية لأعضاء المجموعة بين 1200 و4 آلاف دولار، ويتقاضى كبار موظفيها والعاملون في الخارج بشكل عام أجورا أعلى. [2]

مع ذلك فإن مجموعة فاغنر رغم احتراف مقاتليها، لا تحظى بشرعية قانونية رسمية من روسيا لاحتكار إستخدام العنف، إذ ترى روسيا في ذلك إنتهاكا واضحا للدستور الروسي،

ومخالفة لأحكام المادة 359 من قانونها الجنائي التي تجرم وتحظر الارتزاق.

حاول عدد من أعضاء مجلس النواب الروسي بداية من عام 2009 تمرير تشريعات تقنن عمل الشركات العسكرية الروسية لكنها لم تحظ بالموافقة. وفي مارس 2018 رفض مجلس الوزراء الروسي (بما في ذلك وزارات الدفاع والعدل والمالية، الحرس الوطني، وجهاز الأمن الفيدرالي، وجهاز الاستخبارات الخارجية، والمدعي العام) النظر في إضفاء الشرعية على فاغنر أو الشركات العسكرية الخاصة الأخرى، بحجة أن سلوك "المرتزقة" ينتهك الدستور الروسي وأن الدولة وحدها هي المسؤولة عن الدفاع والأمن. ويعزى عدم تقنين نشاط تلك الشركات إلى عقبات بيروقراطية من طرف جهات نافذة في مقدمتها الجيش الروسي ترى ضرورة احتفاظ الدولة باحتكار استخدام العنف، فضلا عن وجود تضارب في المصالح بين وكالة الأمن الفيدرالي

(FSB) وجهاز الاستخبارات العسكرية (GRU) فيمن يخص من له حق الإشراف على نشاط تلك الشركات.وأخيرا، تعتبر موسكو أن الشركات العسكرية والأمنية الخاصة أكثر فائدة طالما أنها غير مقننة. فبهذه الطريقة، يسهل على السلطات الروسية التنصل من المسؤولية عن أنشطتها [3]

وفي مقابل الخدمات الأمنية التي تقدمها فاغنر لأنظمة الحكم الديكتاتورية والهشة في إفريقيا مثل حماية النظام الحاكم وسحق أي محاولات للاستيلاء على السلطة، فإن الإستراتيجية الروسية لا يغيب عنها المصالح والثروات التي تذخر بها القارة السمراء، مثل النفط والذهب واليورانيوم والليثيوم في مالي والنيجر وبوركينا فاسو وإفريقيا الوسطى والسودان، فضلا عن صد تمدد الدول الغربية والولايات المتحدة.

على صعيد التنافس بين موسكو وواشنطن على الموارد الأفريقية، تقول دراسة بمعهد بروكنغز الأميركي،

إن روسيا تستهدف عبر الدور الذي تلعبه مجموعة "فاغنر" في السودان وأفريقيا ضرب النفوذين الأوروبي والأميركي في القارة الأفريقية. ومعروف أن "فاغنر" تعرقل نجاح الثورات والتحول الديمقراطي وبسط سيادة القانون في أفريقيا والمحيط العربي، كما هي الحال في السودان وليبيا .وفي استراتيجيته الأفريقية، وحسب معهد بروكنغز، تسعى موسكو إلى محاصرة النفوذين الأميركي والأوروبي في أفريقيا وتضع ذلك على جدول "أولويات السياسة الخارجية لروسيا". ولتحقيق هذا الهدف، تسعى موسكو إلى إنشاء أنظمة عسكرية تديرها مليشيات أو سلطات عسكرية أفريقية تعتمد على حماية مجموعة "فاغنر" أمنيا للنظم العسكرية، مقابل الحصول على عقود مناجم الذهب واليورانيوم والمعادن الرئيسية الأخرى التي تخدم مصالح روسيا في السباق على النفوذ العالمي.[4]

ولأن دول غرب إفريقيا يتواجد بها مخزون ضخم من المعادن النفيسة والمهمة، مثل اليوارنيوم في النيجر والذهب في السودان ومالي، فقد وظفت روسيا مجموعة فاغنر للاستيلاء على تلك المعادن بموجب تعاقدات واتفاقيات مع السلطات الحاكمة.

تعد مالي رابع أكبر مصدر للذهب في أفريقيا، كما تمتلك احتياطيات كبيرة من النفط والمنغنيز واليورانيوم والليثيوم، وهو معدن يستخدم في صناعة بطاريات السيارات الكهربائية، وذلك وفقا لوزارة التجارة الأميركية وهيئة المسح الجيولوجي الأميركية. [5]

وفي مقابل حماية الأنظمة الإفريقية من أي عدوان أو محاولات انقلابية قد تتعرض لها، فإن بعض الحكومات الإفريقية كانت تلجأ لهذه الميلشيات المتخصصة في الحروب وتوفير الحماية اللازمة، غير مراعية لثروات ومعادن البلاد والمحافظة عليها باعتبارها أمنا قوميا وحقا أصيلا لكافة الشعب!

لاحظت دراسات غربية أن روسيا وبعض الدول المتنافسة على الموارد الطبيعية في أفريقيا ، عمدت إلى إنشاء المليشيات العسكرية لخدمة مصالحها في أفريقيا ، وجرى ذلك عبر دعم هذه المليشيات الانقلابات العسكرية والحكومات الديكتاتورية الهشة، التي هي بحاجة للحماية من الجماهير الغاضبة من حكامها الطغاة.وعادة ما تمنح الحكومات الغربية هذه المليشيات والمرتزقة عقودا لحيازة التنقيب عن المعادن الاستراتيجية شبه مجانية، ولا تراعي مصالح شعوبها ، في مقابل الحصول على صفقات السلاح وعقود الحماية الأمنية. [6]

لذا فقد كان من مهام فاغنر الأساسية تأمين مناطق التعدين والمناجم التي تضم الثروات الطبيعية مثل الذهب والماس واليورانيوم وحقول النفط، ويستدعي ذلك التأمين إستخدام العنف والقوة المفرطة وربما تطهيرا من السكان إن إقتضى الأمر، من أجل

تعزيز النفوذ الجيوسياسي ل-روسيا، إلى جانب توفير الحماية وتدريب الحرس الرئاسي كما في إفريقيا الوسطى الغارقة في الفوضى.

تقوم مجموعة فاغنر بالعديد من المهام العسكرية والسياسية والإعلامية أيضا، فإلى جانب مشاركتها الميدانية في عمليات القتال، توفر المجموعة التدريب للأجهزة الأمنية والوحدات الخاصة المكلفة بحماية كبار الشخصيات، كما تحرس أيضا المنشآت ومناجم الذهب والألماس وآبار النفط والموانئ كما هو الحال في ليبيا وإفريقيا الوسطى، وتشترط لذلك الانتفاع بنسبة مئوية مهمة من أرباح هذه المنشآت التي تحلم الشعوب الإفريقية بالتمتع بخيراتها. [7]

الولايات المتحدة من جانبها فرضت عقوبات على مجموعة فاغنر ومؤسسها، حيث فرضت وزارة الخزانة الأمريكية عقوبات مالية على"دميتري أوتكين" المؤسس الأول للمجموعة، كما اتهم مدير

مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق "روبرت مول" 2018 "بريغوجين" بالتدخل في الانتخابات الرئاسية الأميركية لعام 2016 وصنفت الولايات المتحدة أيضا فاغنر باعتبارها منظمة إجرامية عابرة للحدود، ويرجع ذلك إلى دورها المتعاظم في الغزو الروسي لأوكرانيا.

يمكن القول أن عدة عوامل ساهمت في البداية على نجاح مجموعة فاغنر في إفريقيا، منها ضعف الأنظمة والديكتاتوريات الحاكمة ورغبتها في السلطة بأية وسيلة كانت حتى لو أدى ذلك إلى إفقار شعوبها، التي تعاني ظروف الفقر والمجاعات، وانتشار الأمراض وضعف البنية التحتية، والإنفجار السكاني وتردي الأوضاع الأمنية وانتشار الجريمة.

إذا كانت بدايات فاغنر تمثل انعكاسا فريدا من نوعه لروسيا بوتين، فإن نجاحها في الخارج تحقق بفضل ظروف عالمية محددة. فقد استغلت مجموعة فاغنر عدة عوامل منها التوجه العالمي

لخصخصة الحرب، والأزمة الوجودية التي تعانيها قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، وفشل التدخلات الغربية في إفريقيا. ولا تمثل فاغنر حالة شاذة في السياسة الإفريقية، لكنها تمثل -على حد وصف الباحث غراهام هاريسون- "جزءا من ذخيرة الآليات"، التي يستخدمها الزعماء الأفارقة لإدارة غياب الاستقرار المستمر.[8]

إلا أنه من ناحية ثانية فقد مثلت ليست الحرب الروسية_ الأوكرانية عاملا من عوامل عدم استقرار المجموعة في إفريقيا وحدها، لكن أيضا المقاومة التي وجدتها من الشعوب الإفريقية التي ترفض وتستنكر سرقة ثرواتها وأمنها القومي.

وعلى سبيل المثال، فإن تمرد مليشيا فاغنر وانشغالها بالحرب الروسية في أوكرانيا أضعف نفوذها في أفريقيا، حيث تمكن الجيش السوداني من ضرب قوات الدعم السريع "مليشيا حميدتي"، الذراع الأفريقية القوية للمجموعة

الروسية في أفريقيا، وبالتالي خسرت روسيا تدريجيا مناجم للذهب في أفريقيا الوسطى لصالح الشركات الفرنسية .ويبدو أن موسكو في طريقها لخسارة منجم جبل عامر للذهب في السودان، وربما في المستقبل خسارة حقول النفط في شرق ليبيا، التي تسيطر عليها قوات الجنرال المتقاعد " خليفة حفتر"، التي تعتمد على دعم مجموعة فاغنر ودولة إقليمية أخرى. [9]

مع ذلك وبعد إعلان مقتل زعيم فاغنر "يفغيني بريغوجين" الأيام الماضية، فإن المجموعة قد تتأثر تأثرا بالغا بذلك الحدث لأن أول ما يتبادر إلى الذهن أن مصرع "بريغوجين" دبر بليل، مع الأخذ في الاعتبار محاولته التمرد في الأشهر الأخيرة، وربما دفع به "بوتين" إلى تلك النهاية، فعلى مستوى القيادة الروسية، لا تريد روسيا من ينازعها حتى وإن كانت الخدمات الأمنية والعسكرية التي تقدمها مجموعة فاغنر هي من اصعب وأخطر المهام في إفريقيا،

وبما تمثله تلك المجموعة من صعود حقيقي للنفوذ الروسي موصدة الباب أمام الفواعل الأخرى، وعلى مستوى المجموعة، فإن غياب وتصفية قائدها (إذا ثبت ذلك بالفعل) ربما يؤدي إلى مزيد من الإنشقاقات والتشظي بها وربما النهاية.

**المصادر:**

[1]_ الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مجموعة فاغنر، (تاريخ الدخول: 25 اغسطس/ آب 2023): https://tinyurl.com/2799tnm2

[2]_جنود للإيجار.. التاريخ السري لعلاقات مرتزقة فاغنر وروسيا، موقع الجزيرة نت، 24 اكتوبر/تشرين الأول 2020، (تاريخ الدخول: 25 اغسطس/ آب 2023): https://tinyurl.com/2p8bs238

[3]_أحمد فريد مولانا، شركة فاغنر الروسية النشأة والدور والتأثير، المعهد المصري للدراسات، 3فبراير/شباط2021، (تاريخ الدخول: 25 اغسطس/ آب 2023): https://tinyurl.com/5n6wxxzd

[4]_هكذا تسرق "فاغنر" الروسية ثروات أفريقيا وتحاصر النفوذين الأميركي والأوروبي فيها، صحيفة العربي الجديد ،4مايو / ايار ،2023، (تاريخ

الدخول: 25 اغسطس/آب 2023): https://tinyurl.com/yxksuwms

[5]_وول ستريت جورنال: فاغنر ترسل جيولوجيين لاستكشاف مناطق غنية بالموارد في مالي قبل التمدد إليها وطرد سكانها منها، موقع الجزيرة نت، 22 اغسطس/آب2022، (تاريخ الدخول: 25 اغسطس/آب 2023): https://tinyurl.com/5c58hz5u

[6]_هكذا يخدم تمرد فاغنر نفوذ فرنسا في أفريقيا، صحيفة العربي الجديد، 26يونيو/حزيران، 2023، (تاريخ الدخول: 25 اغسطس/آب 2023): https://tinyurl.com/5eerv4w2

[7]_عائد عميرة، مرتزقة فاغنر".. سلاح روسيا لبسط نفوذها في إفريقيا، صحيفة نون بوست، 15سبتمبر/ايلول2020، (تاريخ الدخول: 25 اغسطس/آب 2023): https://www.noonpost.com/content/38300

[8]_فاغنر في إفريقيا.. هل أصبح عمر الذراع الطويلة لروسيا قصيرا؟ كلا، وهذه هي الأسباب، صحيفة عربي بوست، 10اغسطس/آب2023، (تاريخ الدخول: 25اغسطس/آب 2023): https://tinyurl.com/25ydput8

[9]_هكذا يخدم تمرد فاغنر نفوذ فرنسا في أفريقيا ،مصدر سابق

## عبد الحليم عثمان ود زياد..الذي عرفته

في مثل سني تقريبا وإن كنت أكبره بأربعة أشهر كاملة، كان" عبد الحليم عثمان دفع الله ود زياد " كما قابلته أول مرة في صندوق الدواء الدائري، حيث عملنا سويا قرابة أربعة سنوات كاملة، لم يحدث فيها ما يعتري كل الأصدقاء وما يعتري البشر من سوء الفهم أو انواع الخصام إلا لماما ، فقد كانت علاقتنا على العكس من ذلك ، في كل يوم كان يعلو قدره في نظري وفي نظر جميع من يعرفونه بأدبه الجم وأخلاقه الرفيعة وعفويته الخالصة.. كان كما قابلته أول مرة فتى بدينا ، رزينا ، أنيق

الهندام ، من صفاته الوقار والكرم ، والإقدام والزهد وخفة الدم ، وتفقد حال الآخرين والسؤال عنهم ، وكثير من الصفات الفاضلة الجامعة.. ومن قدر الله أن يأتي توزيعنا الذي يتم كل عام في المؤسسة التي نعمل بها ، أن نلتقي مرة أخرى سويا وتكرر ذلك من حسن حظي على مدى الاربعة سنوات... كان في نظام المؤسسة أن يتم توزيع الموظفين كل عام إلى مجموعات تتكون من ثلاثة افراد وهم : الصيدلاني والمحاسب وسائق السيارة ، وأن توزع هذه المجموعات للاشراف على الوحدات الصحية في أنحاء وأرياف ولاية الخرطوم.

لم أكن أتوقع أن تتوثق علاقتي به هكذا سريعا، وأن يملك هذا الرجل من الأخلاق ومفاتيحها بما يجعلك مجبرا على احترامه وتقديره.. وبعد أن غيبه الموت في يوم الاربعاء الماضي31 من يناير 2024. ونعاه لنا صديقنا "مصطفى مبشر" ، أحسست بمدى عظمة هذا الصاحب الوفي الكريم المقدام الزاهد.. وأشك

كثيرا في أن يمتلئ الفراغ الكبير الذي تركه هذا الرجل _رحمه الله _في نفوس كل من عرفه.

كان محاسبا مثله مثل أي محاسب يعمل في مؤسستنا ، إلا أنه كان محبوبا من الجميع ومميزا ، بتواضعه وأخلاقه الرفيعة، تراه يجلس في مكتبه مع مجموعة زملائه المحاسبين إما ممسكا بكتاب الله (قال لي ذات مرة يحدثني، أنه يقرأ سورة البقرة كل يوم..)، أو منهمك في شؤونه المحاسبية.. وكنت في مكتب مجاور له (مكتب الإشراف).. كنت آتيه أحيانا كثيرة.. لمناقشته في عمل ما.. أو أحيانا بغرض الحديث والتسامر معه.. والحق يقال ، أن الحديث معه كان يجلو لي بعض التعكر وتغير المزاج الذي كان كثيرا ما يلم بنا من العمل الشاق بالمؤسسة، إذ نخرج يوميا إلى الوحدات الصحية النائية في أرياف ولاية الخرطوم، إلى حدود قرية الشهيناب ،والشيخ الطيب وأم كتي في أقصى شمال مدينة امدرمان، وإلى قرى الجموعية

والمقداب في الريف الجنوبي لها ، وإلى قرى المغاربة في شرق النيل والحسيناب على حدود ولاية الجزيرة ،وإلى قرى الحسانية والبجا عبد الهادي في أقصى جنوب ولاية الخرطوم ، وإلى قرى الشايقية والمحس أقصى شمال مدينة بحري.. نرجع بعدها منهكي القوى والابدان والأذهان.

وكان من عادته أن يبادر في حل المعضلات التي تصادفنا كثيرا...كنت أجد عنده حلولا لكل مسألة معقدة تقابلني.. كان ممن يدعون إلى عمل الخير ، ويتصدون للعمل العام ، وهذه ميزة لا توجد عند أي أحد.. هناك أفراد يحبب الله اليهم العمل لأجل الجماعة، ولا توجد هذه الميزة عند الاخرين.. مرات عديدة كان يدعو إلى نجمع مالا مساهمة من كل فرد كل بحسب طاقته ، لعلاج مريض أو مساهمة في زواج آخر ، أو.. أو..

في علاج أحد الأصحاب من داء الكلى وقد سبقه لاحقا بالرحيل قبله بأيام معدودات ، رحمهم الله أجمعين.. في علاجه ،

كان " عبد الحليم " سباقا للخير كعادته ، كان يجمع المساهمات بنفسه .. وكان مع ذلك يحبه حبا شديدا ..

كان محبا للخير...

لزملائه وللاخرين..

وكان صاحب آخر يلازمه الفقر المدقع والعوز طيلة الشهر ، حتى اضطر إلى ترك العمل وتقديم استقالته ، إذ لا تكفي النقود القليلة التي يستلمها في آخر الشهر لمتطلبات إيجار البيت ونفقاته وعلاج إبنته ، وتوجه إلى عمل آخر ، إلا أنه لم يستقيم أمره كما كان يرجو ،... وابتسم القدر مرة أخرى فقد سهل الله ل- "عبد الحليم" أن يقدم يد المساعدة ، فعمل الرجل في مؤسسة أخرى وأثرى منها وأنقلب بنعمة من الله وفضل.

كان لا يقبل الظلم ، ويحرص على المساعدة في حل أي مشكلة مالية يعاني منها البعض..

وكنا أنا وهو نعمل جاهدين على حل مشاكل العمل التي تقابلنا أو التي تواجه كوادرنا التي نشرف عليها ... إذ كان تنتشر بينهم أحيانا أنواعا من عدم الإنسجام والتفاهم .. إعترض ذات مرة مساعد صيدلي في مستشفى نائي في أرياف أمدرمان على تعيين صيدلاني حديث التخرج معهم في وحدتهم الصحية ، معترضا عليه دائما في الصغيرة والكبيرة ، ويرى أنه لا ينفع في شيء... ووصلنا حجم التذمر عبر الهاتف... شددنا الرحال إليهم ، وكان شأننا أنا و " عبد الحليم " أن نلطف الأجواء بينهم ، وأن نعمل على تهدئة النفوس ، ونذكر الإثنين بحجم الرسالة الملقاة على عواتقنا ، وأن يتعاون الجميع في كل أمورهم ، وأننا أسرة واحدة ، يوقر الصغير فينا الكبير ، ويحترم الكبير من دونه ، وأن يجد كل واحد لأخيه العذر دائما ... وقد حدث... كنا أنا وهو _رحمه الله_ كأننا عمد لا مشرفين..

كان _رحمه الله_تعجبه الطريقة التي أتبعها في الإشراف ،فقد وضعت نصب عيني نصيحة وارشاد وجهه لي د." احمد عبد الرحمن" وكان مديري المباشر، وقد آتت هذه الطريقة والنظام أكلها بفضل الله ، لاستمراري عليها ومداومتي ،.. كان مديري المباشر الفاضل يرى من أهم واجباتنا هي زيادة ورفع المستوى العلمي لدى الكوادر العاملة في الوحدات الصحية.. في زيارة لإحدى الوحدات الصحية النائية في غرب أمدرمان كانت (س) تهتم بصيدليتها اهتماما كبيرا والحق يقال ، إلا أنني لاحظت أنها تنتطق اسماء بعض الأدوية بصورة خاطئة ، وكان واجبي أن تعرف هي النطق الصحيح ولا تنساه أبدا ، فطلبت منها أن تحضر لي ذلك المرهم من الرف ، وصاحبي _رحمه الله _ينظر ويسمع.. طلبت منها بعد أن جلست بجانبي أن تنطق اسمه.. كانت الوحدة الصحية فارغة من المرضى فقد إنتصف النهار ، وزادت حرارة الشمس ، ولم يبقى إلا نحن

ثلاثتنا ..عندما نطقت الإسم خطأ ، رفعت صوتي عاليا بالنطق الصحيح كأني كنت أوجه جيشا للقتال

_ اسمه ( clotrimazole )

الى الحد الذي جفلت معه الفتاة ودخل في قلبها الرعب.. وبعد أن هداء روعها ، انفجرنا الثلاثة ضاحكين.. وضمنت انا بهذه الطريقة المفزعة أنها لن تنسى الاسم الصحيح ما حييت.

ويوما بعد وفاة والدي _رحمه الله _ أتى لي في منزلي وبصحبته " مرتضى " ومكثا معي في داري للتعزية...كان رحمه الله يحب الأصحاب ويواسيهم في أحزانهم ويفرح لفرحهم .ويشد الرحال إليهم أينما كانوا.

حكى لي أنه ذات ليلة قفز لص من الأشقياء إلى دار قريبة منهم ،وكان بالدار إمرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة..عندما رأت اللص يجوس في دارها صرخت بأعلى صوتها ..كان " عبد الحليم " وأخيه د." الشيخ " هما أول من برز

من رجال الحي..حكى لي أنه عبأ غدارته بالطلقات حالفا لا ينجو إن نجا ذلك الشقي..وأن يفرغ الطلقات الساخنة في رأسه..إلا أن اللص هرب سريعا في الظلام.

مع هذا ، كان_ رحمه الله_ أيضا محبا للفكاهة ويتميز بخفة الدم وتعجبه المواقف الطريفة..قصصت عليه ذات مرة ونحن بالسيارة في وسط امدرمان في حمد النيل ، بعد أن انتحى السائق المتدين الوقور " مصطفى رحمة " _حفظه الله_ بالسيارة جانبا ونحن نرتشف شاي ساخن به بعض أوراق النعناع في السيارة بعد عناء يوم شاق..

_كنت اعمل يا أصدقائي في سنة من سنوات عملي بصيدلية أفنيت بها من عمري سنوات عددا ، وكانت معي فيها صيدلانية معجبة بنفسها اعجابا شديدا ،وعلى حظ كبير من الجمال ،وتهتم بذاتها وذوقها ومتطلباتها اهتماما كبيرا ، وكنا نتميز من الغيظ من ذلك.. وكانت بجانب ذلك تكيد لزميلتها الأخرى المحاسبة كيدا عظيما.. اشتد الحوار بينهما ذات

مرة إلى الحد الذي لكمت فيه المحاسبة وقد أوتيت بسطة في الجسم ..لكمت الصيدلانية ذات الجمال لكمة موجعة في جنبها ، عندما رأت أن لا حل امامها سوى ذلك الحل الفظيع ، نعم حدث هذا كما رويت لي القصة ولم أكن موجودا معهما وقتها .. وعندها صرخت الصيدلانية من الألم صرخة عظيمة .

وما أن فرغت من سرد القصة ورغم ما فيها من ألم وطرافة في الوقت نفسه، نظرت إلى صاحبي لأرى وقع الرواية عليهما ، فاذا هما قد دخلا في نوبة عظيمة من الضحك والقهقهة، استمرت لدقائق طويلة ، ضحكنا ثلاثتنا ضحكا طويلا كما لم نضحك من قبل ، حتى دمعت العيون..فقد كنا أنا و " عبد الحليم " و " مصطفى " في صف المحاسبة البائسة ، مهضومة الحقوق..وكان يحلو ل-" عبد الحليم " كلما فرغنا من الضحك ، أن يعيد مقاطع من رواية القصة ولا يكملها، بل يغرق ونغرق معه في موجة جديدة من

الضحك والتعليق.. كأننا للتو سمعنا القصة أول مرة.

كان يحدثني في سيارة الترحيل ، وكنا نتجاذب أطراف الحديث فيها في كل المواضيع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهموم المعاش.. وكان يبتدر الحديث الشيق مع الصاحب الوفي " بهاء الدين وداعة " وسرعان ما يشارك الجميع في الحديث ، كل يدلي بدلوه..تعلو أصواتنا وتهبط في شتى المواضيع، السياسية والدينية والفنية..في علو وهبوط ، والسيارة تنهب الطريق ، يبدأ الحديث أحدهم فيكمل الآخر الحديث ، " متوكل " و " خالد حسن ضو البيت " و " أنس " و " العبيد مصطفى " و" أحمد عبد الحفيظ "و د. "مهند " و " هادية " و" اسلام" و " علاء الدين " و " ابو عبيدة " و شخصي الضعيف ؛ خاصة إذا تطلب الأمر إلقاء بيت من عيون الشعر العربي تناسب أو تقارب الحديث..

كان يحدثني أن الفرقاء السياسين في السودان يجب ان تتحد كلمتهم، أو أن الدم سيصل إلى الركب.. كان بعيد النظر رحمه الله..وقد حدث مع الأسف ما حذر منه.

وكان يثني على مقالاتي التي أنشرها بين الحين والحين..ويسألني عن موعد صدور كتابي الأول ، ويحدث الآخرين أنني بذلت فيه جهدا عظيما ..فقد كنت أكتب أجزاء كبيرة من كتابي الأول (قوة الدولة) معتمدا على هاتفي الجوال قرابة الساعة والساعتين ، هما مقدار مسيرنا بالسيارة إلى الريف الشمالي ل-امدرمان.

كان يحب إبنه " محمد " _حفظه الله _حبا كثيرا ، ومن من الناس لا يحب " محمد " إبن الستة سنوات !.. كان كثيرا ما يهاتفه بالموبايل ونحن نجتاز الصحارى والقفار في الريف الشمالي ل-أمدرمان.. حفظ الله " محمد " وأخواته " رفاء " و " سيدة " .. ومما شابهني فيه _رحمه الله _ أن له ثلاث بنات وولد

مثلي تماما..واسم إبني أيضا " محمد " .

وكان _رحمه الله رحمة واسعة_ يحب أهله ويذكرهم بالخير ، ويحب أخيه الذي سبقه بالرحيل "سيف اليزل" وقد عاصرت الأخير _رحمه الله _ وعملت معه في بداية عملي بالمؤسسة ، كانا الإثنين فاضلين كريمين، رحمهما الله ، وكان بارا بوالديه ، ويحب شقيقه د. " الشيخ " و " ياسر " و أهله " ابو عبيدة " وإبنه" معتز "و"عبد الناصر " و محمد علي باشا " و "عبد البديع" و" علاء الدين " ويحب أصدقاءه " بهاء الدين وداعة "و " أسامة " و " حامد عبدالله " و " عمر الفاروق " و " آدم " و مولانا " عادل" وكل افراد مؤسستنا.

لم يكن أخا وحسب ، بل كان أبا للكل، فقد كان حسن الإصغاء ، رحب الصدر ، يقول الحق ولو على نفسه ، ويغضب لله غضبة لم أرى مثلها..كنت أحدث نفسي كثيرا أن مثله لو كان عضوا بمجلس إستشاري للمدير العام ، كان سيقدم

للمؤسسة أكثر مما هي عليه ، فقد كنا في أوقات عديدة في حاجة للرأي الناجع ، والحلول المنصفة التي لا ظلم فيها ولا تحيز..رحمه الله رحمة واسعة.

ذكر لي مرة حديثا كلما أرجع بذاكرتي إليه أبتسم وأضحك وحدي.. فقد كان في زيارة من زيارتنا الاشرافية أن ذهبنا إلى وحدة صحية في حي يقع ناحية الجنوب من امدرمان وكان من عادة الصيدلاني والمحاسبة في تلك الصيدلية أن يجتمع إليهم بقية الموظفين والموظفات في الوحدة الصحية على مائدة الافطار ، إذ يلتئم جمعهم في الصيدلية ويأكلون ويشربون ويضحكون.. أتيت إليهم في تلك الزيارة،وحدثت الصيدلاني والمحاسبة أن لا يجعلوا من الصيدلية مكانا لتناول الأطعمة والأشربة ، ووبختهم على فعلتهم، فللصيدلية مكانتها وقداستها ، لأنها مكان تقدم فيه الخدمة الصيدلانية للمرضى..وكنت شديدا قاهرا معهما.. وقد إستجابا لكلمتي وتوجيهي.. ووعدا بأن لا يتكرر ذلك..

وفي زيارة أخرى بعد فترة من الزمن ، قدمت أنا و" عبد الحليم " لذات الوحدة الصحية ، ووجدت لسوء حظي ما حذرت منه الصيدلاني وزميلته ، فقد رأينا إثنتين من النسوة خارجات لتوهما من الصيدلية بعد أن فرغن من إفطارهن وقهوتهن.. كانتا مسرعتين عندما رأينا ، حتى كادت ان تتعثر أقدامهما .. ضحكت وصاحبي " عبد الحليم " ، قلت له :

_ لقد وصلت رسالتنا إليهن ، لذلك ترى هذه الهرولة

وأسر هو لي قائلا:

_كان الأحرى أن تاخد لك فيهن جرية !

كان يقصد بلهجته العفوية أن اركض خلفهما في فناء الوحدة مهددا ومتوعدا.

كان يرى أن البلد لن يضيعها إلا كثرة الآراء والأهواء والاطماع..كان قلبه على السودان، يحبه كثيرا ويخدمه في إخلاص تام.. رحمه الله رحمة واسعة..

كان كل من عاشره يحبه..جمع حب الناس عنده ورحل..

هل كنت يا " عبد الحليم " بشرا مثلنا..أم ملكا من الملائكة ، حتى يحبك الأصدقاء والأعداء..

هل أغضبنا مقامكم يوما ما ونحن لا ندري...

هل بدر منا ما يسوءكم...

هل اخطأنا في حقكم ونحن لا نعلم...

هل كنت من الملائكة ورحلت لله ..

للملائكة...

نسأل الله لك الرحمة والمغفرة وجنة الفردوس ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة...

رحلت جسدا ،وانا لفراقك لمحزونون... لكنك روحا لم ترحل..ولن ترحل..

رحلت لله...

ونحن وأهلك وأحباؤك وأصدقاءك نسأل الله الصبر الجميل.

## الصين باعتبارها البجعة السوداء: دلالات ومؤشرات

رغم أن التفكير في الأحداث أو الأشياء(مثل وجود البجعة السوداء) التي تبدو غير منطقية أو معقولة الحدوث في وقتها ، مع أنه لا شيء يمنع حدوثها لاحقا حتى وإن كان ذلك الاحتمال هو فرضية ضئيلة وقليلة نسبيا هو نوع من التوقعات التي تتجاوز المدى المنظور، ورغم أنه لا يوجد ذلك النمط من التفكير لدى الكثير من الباحثين والمهتمين وحتى إن حدث ذلك ربما لا يخرج من إطار الفرضيات والتنبؤ بالأزمات فقط، إلا أن نمط التفكير

المتوقع والمفروض فيما اتصور ليس توقع كل الاحتمالات والفرضيات والأزمات؛ لكن أيضا البجعات السوداء البعيدة عن الواقع والمألوف ووضع آليات للتعامل معها وقت حدوثها (إن هي حدثت) بما يحقق الفوائد والمصالح.

وبما أن البجعات السوداء عصية على التكهن فإننا نحتاج إلى مؤالفة اذهاننا مع وجودها (بدلا من أن نحاول بسذاجة التكهن بقدومها)، وهنالك العديد من الأشياء التي نستطيع القيام بها إذا ركزنا على حقيقة جهلنا بها أو عنها فبين عدة منافع أخرى تستطيع أن تشرع في جمع ما اتفق لك من البجعات السوداء (من النوع الإيجابي عن طريق الإكثار من فرص تعرضك لها).[1]

نظرية البجعة السوداء ( Black swan theory) هي نظرية تشير إلى صعوبة التنبؤ بالأحداث المفاجئة، تقوم هذه النظرية على الفكرة السائدة بأن البجع كله أبيض أما وجود البجع الأسود فهو نادر ومفاجئ، وتنطبق هذه النظرية على

الأحداث التاريخية التي لم يكن من الممكن التنبؤ بها أو كان احتمال وقوعها غير وارد على الإطلاق، فمعظم الناس لم يروا بجعا أسود، لذا يعتقدون بعدم وجوده، وذلك لأن عقلنا يركز على أمور ويغفل عن أخرى. [2]

ولأن الصين دولة عظمى وصاعدة وتشكل قطبا قويا لا يمكن تجاوزه في النظام العالمي، وفي ظل مؤشرات دالة على تنازل الهيمنة الأمريكية خاصة بعد الحرب الروسية الأوكرانية، فقد تمثل الصين بجعة سوداء غير متوقعة، قد تحتمي وتلوذ بها إسرائيل لعدة دلائل ومؤشرات أولية سنحاول هنا جمع جزء منها.

أولا: النسب المئوية للميل الإيجابي في إسرائيل للصين

بحسب إستطلاع للرأي العام أجراه مركز بيو للأبحاث في عام 2019 لتوضيح وإستجلاء رغبة وميل الإسرائيليين تجاه الصين، فإن نتيجة الإستطلاع كانت تشير

إلى أن النظرة الإيجابية تجاه الصين كانت أكبر من السلبية.

أظهر إستطلاع للرأي أجراه مركز بيو للأبحاث في عام 2019 ان26% من سكان الولايات المتحدة أبدوا آراء إيجابية بشأن الصين و60% منهم أبدوا آراء سلبية. إلا أن النتائج كانت معاكسة في إسرائيل إذ أبدى 66% من السكان آراء إيجابية و 25% منهم آراء سلبية. أما في إستطلاع للرأي أجري في عام 2022 ونشر مؤخرا، فتبين أن نظرة الأمريكيين إلى الصين قد اصبحت أكثر سلبية منذ الإستطلاع السابق 16% مؤيدة و82% غير مؤيدة وكذلك نظرة الإسرائيليين إلى الصين إذ أعرب 48% منهم عن رأي إيجابي و 46% عن رأي سلبي.[3]

ثانيا: خطاب الكراهية المتبادل بين الولايات المتحدة وإسرائيل

على مستوى المسؤولين والنخب في الداخل الإسرائيلي، يعتبر من أبلغ المؤشرات والضجر الذي إعترى العلاقات

الإسرائيلية الأمريكية هو ما صرح به "ايتمار بن غفير" وزير الأمن في حكومة نتنيا هو، فبعد ساعات قليلة من تصريحات "بايدن" لشبكة "سي أن أن" التي جاء فيها وصف "بايدن" للحكومة الإطسرئيلية بالاكثر تطرفا، قال وزير الأمن المتطرف "إيتمار بن غفير": إن إسرائيل لم تعد نجمة أخرى في علم الولايات المتحدة.[4]

وفي تذمر واحتجاج، تحدث الكتاب والمحللون السياسيين في الصحف الأمريكية مثل المعلق في صحيفة نيويورك تايمز "نيكولاس كريستوف" الذي كتب مقال (هل من المعقول أن تواصل الولايات المتحدة دعم دولة غنية مثل إسرائيل إلى الأبد؟) عن عدم معقولية دفع الولايات المتحدة مبالغ طائلة لدولة ثرية أخرى مثلها إن لم تكن أقل منها قليلا.

إن الدعم الأمريكي لدولة ثرية أخرى، يعني تبذير الموارد الشحيحة، ويقود لعلاقة غير صحية تضر بالطرفين.

فاليوم إسرائيل ليست في خطر الغزو من جيرانها، وهي أغنى بناء على مستوى الدخل للفرد من اليابان وبعض الدول الأوروبية. [5]

ولا يخفى على أحد أن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية فقدت ألقها وبدأت تظهر أوجه الإختلاف بينهما، فلم تعد مسألة إسرائيل تحظى بإجماع في الأروقة السياسية الأمريكية كما كانت سابقا، وإنما بدأت تثير الاستقطاب بين السياسيين، إذ يتزايد دعم الجمهوريين وخاصة الإنجيليين لسياسات إسرائيل وتعارضها الغالبية العظمى من الديمقراطيين، كما أضحى الناخبون الشباب يعبرون عن تأييدهم للقضية الفلسطينية أكثر من إسرائيل، لأنه بات ينظر إليها - القضية - كمسألة عدالة اجتماعية وليست مصلحة إستراتيجية .بدأت شرائح واسعة من الأمريكيين الحديث بشكل معلن وصريح عن أن إسرائيل دولة فصل عنصري. [6]

من ناحية ثانية وفي التعبير عن قابلية إسرائيل للاستغناء عن الدعم الأمريكي، قال وزير العدل الإسرائيلي السابق "يوسي بيلين": يجب على إسرائيل التخلي عن الدعم الأمريكي، مضيفا أن المال يمكن أن يستخدم بطريقة أخرى.[7]

أما "ستيفن والت" المنظر الأمريكي والأستاذ بجامعة هارفارد، فيدعي أن الولايات المتحدة لم تستفد شئيا من إسرائيل على مدى عقود، بل إن العكس هو الصحيح.

إذا كانت إسرائيل مفيدة للولايات المتحدة في فترة الحرب الباردة بالرغم من المبالغة في ذلك، فانها وخلال الثلاثين عاما تقريبا من إنتهاء الحرب الباردة لم تستفد الولايات المتحدة من إسرائيل في حروبها مع العراق مثلا، بل العكس هو الصحيح إذ أن الولايات المتحدة قدمت بطاريات صواريخ باتريوت ل-إسرائيل لحمايتها من الصواريخ العراقية.[8]

وفي التعبير عن الرفض الكامل لدعم الولايات المتحدة ل-إسرائيل ماديا قال "دانيال كيرتزر" السفير الأمريكي السابق في إسرائيل: إن الاقتصاد الإسرائيلي قوي بما فيه الكفاية وليس بحاجة لدعم، والمساعدة الأمنية تشوه الاقتصاد الإسرائيلي وتخلق حسا من التبعية. [9]

إضافة لذلك فإن جماعات الضغط خاصة الايباك والتي تعتبر من أكبر جماعات الضغط في الولايات المتحدة، كانت ولا تزال منذ نشأتها تشكل قيدا كبيرا على السياسات الخارجية الأمريكية التي من شأنها أن تمس مصالح الكيان الإسرائيلي.

إن العلاقة الخاصة بين أمريكا وإسرائيل تجعل العلاقة بين أمريكا وبقية دول الشرق الأوسط أكثر تعقيدا بسبب ضغوط إسرائيل وجماعة الضغط الإسرائيلي في واشنطن على الخيارات الإستراتيجية للولايات المتحدة في تعاملها مع مشكلات المنطقة، خصوصا موضوع انتشار الأسلحة النووية التي

تحتكر إسرائيل ملكيتها في المنطقة. [10]

ولأن الولايات المتحدة كانت تتخوف انتقال التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة والأمن السيبراني للصين، فقد حذرت إسرائيل من مغبة الشنائع التي ترتكبها، وفرضت عليها أيضا الوعيد الشديد من وصول الصين للبنية التحتية الإسرائيلية.

قال بومبيو: "نحن لا نريد أن يتمكن الحزب الشيوعي الصيني من الوصول إلى البنية التحتية الإسرائيلية، وشبكات الاتصالات الإسرائيلية"، معتبرا أن ذلك "يعرض الشعب الإسرائيلي للخطر وقدرة الولايات المتحدة على التعاون مع إسرائيل"".وبعد ذلك بأسبوعين، تراجعت الحكومة الإسرائيلية عن منح مجموعة "هونغ كونغ سي كي هاتشيسون" الصينية عطاء لبناء محطة لتحلية المياه بقيمة 1.5 مليار دولار. [11]

ورغم أن الولايات المتحدة ترى في إنتقال التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة والذكاء الاصطناعي وتقنيات الصحة الرقمية للصين عن طريق تسربها عبر إسرائيل، وربما تكون ضررا بالغا تتأذى منه الولايات المتحدة وأمنها القومي من هذا الخصم المراوغ، إلا أن بعض المنظرين الإسرائيليين لا يرون مثل ما ترى.

قال "اسحق شيحور"، عالم السياسة في الجامعة العبرية الذي كان في بكين عام 1992 عندما أقامت إسرائيل والصين علاقات دبلوماسية، إن وعد إسرائيل للولايات المتحدة بعدم بيع معدات عسكرية للصين يشكل بالفعل تنازلا يضر بالعلاقة التجارية وقال إنه يتعين على إسرائيل أن تقنع الولايات المتحدة بأن الصين ليست تهديدا استراتيجيا. وأضاف: بالنسبة لإسرائيل، الصين مهمة اقتصاديا للغاية وهي تفتح الباب أمام العلاقات الإسرائيلية مع الدول الآسيوية الأخرى. من وجهة نظري، يمكن

لإسرائيل بطريقة ما أن توفر جسرا بين الصين والولايات المتحدة.[12]

وفي ذات المخاوف الأمريكية من العمليات المتبادلة بين الصين وإسرائيل، وقبل عقدين من الزمان، تحديدا عام 2000 ضغطت الولايات المتحدة على إسرائيل لإلغاء صفقة لتثبيت نظام الرادار المتقدم فالكون المحمول جوا على طائرات مراقبة تابعة للقوات الجوية الصينية، كما دفعت إسرائيل غرامة للصين بمقدار 350 مليون دولار كتعويض عن الضرر الذي لحق بها ثم تبع ذلك في عام 2005 أزمة أخرى تسببت في تراجع العلاقات الإسرائيلية_الصينية وتغيير نظام مراقبة التصدير الإسرائيلي.

كانت الأزمة الثانية بشأن تحديث أو صيانة _بحسب المصادر الإسرائيلية_لطائرات بدون طيار هاربي لقد نتج عن سوء التفاهم هذا قطع علاقات الدفاع بين إسرائيل والصين، وكذلك تغيرات أساسية في هيكلية نظام مراقبة

التصدير في إسرائيل، لقد بدأت القضية عندما باعت إسرائيل في التسعينات طائرات بدون طيار للصين، ثم تم توقيع عقد بينهما بحيث تتولى إسرائيل صيانتها لكن في سنة 2005 نشأت الأزمة عندما اكتشفت الولايات المتحدة أن الصيانة ستشمل تحديث الطائرات، فاتهمت إسرائيل بخداعها حول طبيعة العمل، ورأتها تهديدا لأمنها القومي كما اوقفت التعاون بشأن برنامج طائرات جوينت سترايك فايتز أف 35 وقد أدى الضغط الأمريكي إلى تغييرات دائمة في علاقات إسرائيل بالصين. [13]

مع هذا فقد ارتفع معدل التبادل التجاري بين إسرائيل والصين لمعدلات كبيرة في الفترة ما بين عام 1992 إلى عام 2021 ليصل إلى 15 مليار دولار، وفي الأشهر الثمانية الأولى من عام 2022 زادت الصادرات الإسرائيلية إلى الصين بنسبة 62% مقارنة بالعام 2021 وخلال زيارة نتنياهو إلى بكين في عام 2017، والتي جاءت لتعزيز العلاقات

بين الطرفين؛ وقعت اتفاقات ثنائية بقيمة 25 مليار دولار بما يشير إلى الطبيعة الإسرائيلية التي تعين عليها البحث عن المصالح والنظرة الصينية أيضا للمصالح الإقتصادية.

يشير المحللون الذين يبررون المخاوف من التقارب بين إسرائيل والصين، إلى ان قيمة التجارة الثنائية بين البلدين نمت من 50 مليون دولار في عام 199 إلى 15مليار دولار (وفقا ل-مكتب الإحصاء الإسرائيلي) أو حتى 22.8 مليار دولار (وفقا ل-مكتب الإحصاء الصيني) في عام 2021. [14]

تعود العلاقات غير الرسمية بين إسرائيل والصين إلى سنة 1979 لكن العلاقات بينهما توسعت وتطورت لتشمل تعاونا في العلوم والتكنولوجيا وإستثمارا صينيا في البنية التحتية والإسرائيلي، بالاضافة للتعاون الاكاديمي، وبالتالي اصبحت الصين ثالث أكبر شريك تجاري ل-إسرائيل بعد الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي حيث

بلغ حجم التبادل التجاري 11مليار دولار سنة 2007 وفي سنة 2014 استوردت إسرائيل من الصين بضائع أكثر مما استوردته من الولايات المتحدة. [15]

من الناحية الديبلوماسية كانت إسرائيل تصوت تارة ضد الصين ملتزمة السياسة الأمريكية ونهجها، إلا انها تارة أخرى تصوت في صالح الصين إذ تحتم عليها النظرة المنفعية والمصالح هذا غير عابئة بالتحذيرات الأمريكية.

يمكن رصد نمط مشابه على الصعيد الدبلوماسي إذ يحفل سجل إسرائيل بآراء متضاربة فيما يخص حقوق الإنسان في الصين، فقد انضمت إسرائيل إلى الولايات المتحدة ودول غربية أخرى في استنكار معاملة الصين للأويغور في حزيران/يونيو 2021 وفي الدعوة إلى اجراء منظمة الصحة العالمية تحقيقا للكشف عن مصادر فيروس كورونا، الا أنها امتنعت في حالات أخرى عن التصويت على القرارات المعادية للصين في مجلس حقوق الانسان التابع للأمم المتحدة ربما

لخيبة أمل واشنطن، ويبدو ان إسرائيل تستخدم صوتها كأسلوب للتعبير عن امتعاضها من تاريخ بكين الحافل بالتصويت ضد إسرائيل في المنتديات الدولي، خصوصا بعد تصويت الصين ضدها في مجلس الأمن الدولي وادانتها القاسية لها خلال الصراع الذي اندلع في غزة في أيار /مايو 2021 وبذلك يمكن لإسرائيل أن تظهر للصين أنها لا تحذو حذو واشنطن بشكل تلقائي، وأنه يمكن للتعاون الثنائي أن يكون مفيدا للبلدين. [16]

أما تصويت الصين ضد القرارات التي تنتقد إسرائيل فقد كانت نتيجة لمصالحها المتنافسة في الشرق الأوسط بحسب مسؤولي وزارة الخارجية الإسرائيلي، وأنه لن يتغير في المدى المنظور.

هناك طريقة أخرى لقياس علاقة الصين الديبلوماسية بإيران وهي تسجيل تصويتها في مجلس الأمن الدولي على القرارات التي تنتقد إسرائيل ففي

الفترة 1992_2016 صوتت الصين باستمرار لصالح القرارات (وعددها تسعة) التي تنتقد إسرائيل، وهنا تجب الإشارة ان تصويت الصين في كل هذه القرارات_ما عدا قرار سنة 1994 حيث اعتمد القرار دون تصويت_كان مع أغلبية أعضاء مجلس الأمن وبالتالي ليس حالة منفردة، وبحسب ما ورد طلب نتنيا هو من بكين تغيير أنماط التصويت في منتديات دولية مثل الأمم المتحدة، لكن هكذا تغير لم يحدث بعد ، وبحسب مسؤولي وزارة الخارجية الإسرائيلية لن يتغير في المدى المنظور وذلك لما للصين من مصالح متنافسة في الشرق الأوسط. [17]

مع ذلك فإنه رغم تحذيرات الولايات المتحدة المتكررة ووعيدها ل-إسرائيل، وما تقوم به منفردة دون الرجوع عليها باعتبارها حليفا أساسيا وإستراتيجيا ، فقد كان بعض الخبراء الإسرائيليون يجدون قاسما تاريخيا مشتركا يجمع بينهم والصين.

"شالوم فاليد" الباحث بمعهد سياسة الشعب اليهودي، وخبير العلاقات مع الصين والهند، أكد أن "مساحة المعارضة الإسرائيلية في المستويات العليا للصين تقلصت بشكل كبير، ولا يمكن لنتنياهو أن يختلف مع الرئيس "شي"، لأنه ليس معاديا لليهود أو لليهودية، حتى أنه أدان مرة صعود معاداة السامية في أوروبا، وأشاد بمساهمة الشعب اليهودي في حضارة العالم، يمكن أن يجدا قاسما تاريخيا مشتركا معينا، مما قد يعبد الطريق أمام نتنياهو لبحث التهديد النووي الإيراني،وكراهيتها لإسرائيل، وإنكارها للمحرقة، أمام كبار المسؤولين في الصين". [18]

ولأن إسرائيل تعلم حقيقة الموقف الصيني الرسمي الرافض للاحتلال والمؤيد لدعم قضية الشعب الفلسطيني، بل انها زودت مختلف الفصائل الفلسطينية بالتدريب العسكري والسلاح، إلا أن ذلك لم يمنع النخب الإسرائيلية من التعاون الإقتصادي مع الصين لما

تمثله الصين من سوق واسعة ويتيح لها الدخول عبرها لكافة الأسواق الآسيوية.

يقول المسؤولون الإسرائيليون وراء الأبواب المؤصدة، ان الصين لن تدعم أبدا موقف إسرائيل في الأمم المتحدة لكن هذه الاختلافات لا تقتصر على موضوع ايران بل تضم أيضا الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، حيث عمدت الصين إلى دعم المواقف المؤيدة للفلسطينيين ففي سنة 2007 مثلا كان موقف الصين سلبيا تجاه الاعتراف الأمريكي بالقدس عاصمة ل-اسرائيل، فقد صرح الناطق باسم وزارة خارجية الصين" قنج شوانج": اننا ندعم قضية الشعب الفلسطيني المحقة في استعادة حقوقهم الوطنية الشرعية، كما نقف مع فلسطين في عملية بنائها لدولة مستقلة ذات سيادة كاملة على حدود 1967 مع القدس الشرقية عاصمة لها. [19]

مع ذلك وإذا استبعدنا مقاربة إسقاط نظرية البجعة السوداء من المشهد باعتبار ان إسرائيل لن تكون في حماية ورعاية الصين والحزب الشيوعي الصيني

بعد إنهيار الدولة العظمى الولايات المتحدة الأمريكية، أو باعتبار تحولات موازين القوى والنظام العالمي الجديد الذي ربما يتجه إلى التعددية القطبية وتكون الصين فيه دولة لديها العديد من مفاتيح النظام العالمي، إذا استبعدنا ذلك فإنه يصح أن نطلق على حالة تحول إسرائيل من الحماية الأمريكية إلى الحماية الصينية حالة الدولة التي تبحث عن المصالح والبقاء أنى وكيف وجد ذلك. وهذا في حد ذاته غير مستبعد أيضا.

قال دانييل شابيرو، سفير الولايات المتحدة السابق لدى "إسرائيل": "ستكون هذه سمة جديدة طويلة الأمد للعلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. تتكيف إسرائيل مع العلاقات التنافسية الاستراتيجية، بينما تحاول الحفاظ على شراكتها الوثيقة (مع أميركا) والاستفادة من الفرص مع الصين". [20]

ورغم أن الصين هي من أوائل الدول التي اعترفت بفلسطين في الأمم المتحدة،

وعينت مبعوثا خاصا في عام 2002 للشرق الأوسط كان يحمل عدة مقترحات لحلحلة أسباب الصراع والنزاع في المنطقة، ورغم انها نددت عام 2017 بالاعتراف الأمريكي بالقدس عاصمة ل-إسرائيل وصوتت لصالح قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي رفض الإعلان الأمريكي، وتصريح السفير الصيني وقتها لدى الأمم المتحدة "ليو جي يي": ان الصين تدعم قضية الشعب الفلسطيني وان هذا لن يتغير ابد، إلا أن الصين ترى من ناحية ثانية أن لها مآرب ومنافع في علاقتها مع إسرائيل!

إن للصين أسباب عملية لمصلحتها الدائمة في إسرائيل، إذ تراها شريكا لتحقيق أربعة أهداف من السياسة العامة، أولا وهو الأهم يميل المحللون والمسؤولون الصينيون إلى النظر إلى إسرائيل كبلد يمكن أن يساعدهم على تحفيز الابتكار المحلي والبحث والتطوير في بلد يتواصل فيه التحديث الاقتصادي والعسكري، ثانيا تنظر الصين

إلى السياسات والخبرات والتكنولوجيا الإسرائيلية في مجالات الدفاع والامن والانترنت ومناهضة الإرهاب وسيلة لتعزيز احتياجات الصين في القدرات الأمنية المحلية والعسكرية، ثالثا ترى الصين إسرائيل لاعبا مهما في السياسة العامة للصين في الشرق الأوسط، كما انها تسعى من خلال زيادة العلاقات معها إلى التوازن في العلاقات الوثيقة تاريخيا مع دول أخرى في المنطقة، قد تسعى الصين ضمن هذا السياق الجيو-إستراتيجي إلى تحقيق تقدم مع حليف رئيسي للولايات المتحدة في المنطقة بقصد تقويض التحالفات الأمريكية العالمية والشبكات الشريكة، رابعا ترى الصين ان إسرائيل مكون مهم لمبادرة الحزام والطريق. [21]

بعد هذا، إذا كانت الحالة الإسرائيلية تمثل في كل المشاهد الظاهرة والمستترة تحولا كاملا نحو المصلحة والبقاء، فما هي ردود الافعال

والسيناريوهات المتوقعة والمطلوبة لقطع الطريق أمامها وتقديم حل كامل لقضية فلسطين واستعادة الأرض، والاستفادة من مواقف الصين باعتبارها من الفواعل العظمى؟

## المصادر:

[1]_نسيم طالب، ترجمة حليم نسيب نصر، البجعة السوداء تداعيات الاحداث غير المتوقعة، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط.1، (2009، ص14

[2]_ الموسوعة الحرة ويكيبيديا، نظرية البجعة السوداء، 23 ديسمبر/كانون الأول، 2022، (تاريخ الدخول: 19 اغسطس/آب 2023):
https://tinyurl.com/36s8xbdv

[3]_ أساف أوريون، كلا إسرائيل لا تدور في فلك الصين، صحيفة واشنطن بوست، 6سبتمبر / ايلول، 2022، (تاريخ الدخول: 10 اغسطس/آب 2023):
https://tinyurl.com/998zdu6y

[4]_نايف زيداني، توماس فريدمان: إسرائيل في حرب أهلية محتملة ولا بد من إعادة تقييم العلاقات الأميركية مع حكومة نتنياهو المتطرفة، صحيفة العربي الجديد،

12يوليو /تموز 2022، (تاريخ الدخول: 10 اغسطس/ آب 2023): https://tinyurl.com/ycyn9wwx

[5]_إبراهيم درويش، نيويورك تايمز: هل من المعقول أن تواصل أمريكا دعم دولة ثرية مثل إسرائيل إلى الأبد ؟صحيفة القدس، 23يوليو /تموز 2023، (تاريخ الدخول: 10 اغسطس/ آب 2023): https://tinyurl.com/36r86ws9

[6]_ مرام موسى، العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.. هل تصل إلى مرحلة القطيعة يوما؟، موقع نون بوست، 9اغسطس/ آب2022، (تاريخ الدخول: 10 اغسطس/ آب 2023): https://www.noonpost.com/content/47677

[7]_إبراهيم درويش، مصدر سابق

[8]_ستيفن والت، حان الوقت لانهاء العلاقة الخاصة مع إسرائيل، موقع فورين بوليسي، 27 مايو / ايار 2021، (تاريخ

الدخول: 10 اغسطس/آب 2023): https://tinyurl.com/v6sbp2y5

[9]_إبراهيم درويش، مصدر سابق

[10]_ستيفن والت، مصدر سابق

[11]_جوشوا ميتنيك، "فورين بوليسي": لماذا لا تستطيع أميركا دفع "إسرائيل" للانفصال عن الصين؟، صحيفة الميادين، 18يونيو/حزيران2020، (تاريخ الدخول: 19اغسطس/آب 2023): https://tinyurl.com/ye6ecb7k

[12]_المصدر السابق

[13]_شيرا إيفرون وآخرون، العلاقة المتطورة بين إسرائيل والصين، (مؤسسة راند، مارس 2019)

[14]_أساف أوريون، مصدر سابق

[15]_شيرا إيفرون وآخرون، مصدر سابق

[16]_أساف أوريون، مصدر سابق

[17]_شيرا إيفرون وآخرون، مصدر سابق

[18]_عدنان أبو عامر، كاتب إسرائيلي يستعرض دوافع نتنياهو لزيارة بكين، موقع عربي 21، 13 يوليو/تموز 2023، (تاريخ الدخول: 19 اغسطس/ آب 2023): https://tinyurl.com/4ju5ehud

[19]_شيرا إيفرون وآخرون، مصدر سابق

[20]_جوشوا ميتنيك، مصدر سابق

[21]_شيرا إيفرون وآخرون، مصدر سابق

## تراجع النفوذ الكولونيالي الفرنسي في إفريقيا : النيجر نموذجا

ربما يعد الانقلاب الذي وقع مؤخرا في النيجر بقيادة "عبد الرحمن تياني" مؤشرا لتراجع وأفول دور فرنسا في القارة السمراء، باعتبارها لاعبا وفاعلا رئيسا في دول غرب افريقيا، بما ينطوي عليه هذا الدور فيما يشبه الوصاية القسرية على تلك الدول، وبما ينطوي عليه أيضا من اكتساب الاهداف وتحصيل المصالح وفي مقدمتها مادة اليورانيوم المشغل الأساسي لمحطات الطاقة النووية.

صحيفة "لوموند" الفرنسية ذكرت أن السيناريو الحاصل في النيجر، من خلال

الانقلاب عسكريا على "محمد بازوم"، كان يخشى منه منذ شهور حلفاء الرئيس المخلوع، وفي مقدمتهم باريس التي أعادت نشر قلب آلياتها لمحاربة الجماعات الجهادية في النيجر.[1]

ولأن شعار "تسقط فرنسا والإمبريالية، عاشت روسيا" الذي كتبه النيجريون أمام السفارة الفرنسية في العاصمة النيجرية نيامي، كان يعكس توجها دفينا في الانعتاق من الاستبداد والسلطوية، فإن إختيارهم التلقائي ل-روسيا يعني توازن قوى ونظام عالمي جديد، تدفعهم إليه روسيا التي نازلت الولايات المتحدة والغرب مجتمعين في اوكرانيا.

ولا يغيب عن الأذهان أنه من أجل تتمكن فرنسا من توطيد ثقافتها وحضارتها في دول غرب إفريقيا، جعلت من لغتها لغة ثابتة ورسمية في تلك الدول باعتبارها وسيلة من عدة وسائل يمكن بها ليس نشر الثقافة الفرنسية وحضارة فرنسا الضاربة وحدها، لكن باعتبارها قوة

ناعمة تستطيع خلالها فرنسا من فرض أي قيود أو توجهات، وبهذا الاعتبار فإن المستعمر كان يوظف في واقع الأمر مفاتيح القوة الناعمة لتحقيق المصالح والأهداف الآنية والبعيدة المدى لديه على السواء.

هناك علاقة وراثية عميقة بين القوة الاستعمارية ومستعمراتها السابقة تتجلى من خلال تراثها الثقافي بإفريقيا الفرنكوفونية، ولذلك تسعى فرنسا جاهدة للحفاظ على هذا التراث حيث يذهب جزء كبير من مساعداتها لتمويل التنمية بإفريقيا إلى التعليم والمنح الدراسيةوالمعاهد الثقافية. [2]

وفور وقوع الانقلاب ألغى المجلس العسكري بزعامة "تياني" إتفاقيات التعاون العسكري مع فرنسا، القوة الاستعمارية السابقة، كما فعلت مالي وبوركينا فاسو المجاورتين بعد انقلابات فيهما ولدى فرنسا ما بين ألف و1500 جندي في النيجر تدعمهم طائرات مسيرة وأخرى حربية تساعد في محاربة

تمرد جماعات على صلة بتنظيمي القاعدة والدولة الإسلامية.[3]

ومن اجل وأد الانقلاب وإبطاله وعودة النظام الديمقراطي، تبنت فرنسا مساعي وعزم المجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا (إيكواس) (ECOWAS) التي أبدت جهوزيتها التامة، وذكرت أن مسؤولي الدفاع فيها وضعوا بالفعل خططا عسكرية لعمل عسكري وشيك إذا لم يتم إسقاط انقلاب النيجر.

بالنسبة ل-فرنسا فإن النيجر تعتبر بعدا جيوسياسيا هاما ودجاجة لا تبيض ذهبا وحسب بل يورانيوم؛ تعتمد عليه بصورة رئيسية في تشغيل مفاعلاتها النووية ،وقد عملت على استغلال وتحصيل هذه المادة الهامة بأبخس الأثمان، اضافة للعمالة زهيدة الأجور في البلدان الإفريقية.

وليست إفريقيا هدفا لاستثمارات فرنسا فحسب، وإنما كذلك سوقا مهمة لصادراتها ، وذلك في ظل طموحات الشركات الفرنسية لمواصلة بيع المنتجات

المصنعة ذات القيمة المضافة العالية. كما تحظى الموارد الطبيعية لإفريقيا بجدارة الاهتمام الفرنسي؛ حيث تعد إمدادات النفط واليورانيوم من القارة ضرورية للحفاظ على الاستقلال الطاقي لفرنسا. [4]

وبحسب وكالة الأناضول، تمتلك النيجر، التي تنتج نحو 5 بالمئة من الإنتاج العالمي، إجمالي احتياطي يبلغ 311 ألفا و110 أطنان من اليورانيوم. يبلغ معدل حاجة فرنسا لليورانيوم تقريبا نحو 7800 طن بالسنة، لتشغيل 56 مفاعلا في 18 محطة نووية، وهو ما دفعها إلى استيراد اليورانيوم على مدى 50 عاما من مستعمرتها السابقة النيجر.[5]

وبعد أن وقعت فرنسا والنيجر عام 1961 اتفاقيات في مجال الدفاع ومنحت فرنسا بموجبها الأولوية في إستغلال الموارد المنجمية مثل اليورانيوم الذي يستخدم لتزويد محطات الطاقة النووية، منحت شركة تنقيب فرنسية

"اريفا" (تعتبر مجموعة أريفا ثاني أكبر منتج عالمي لليورانيوم بعد كازاخستان) الحق في تشغيل اثنين من أكثر مناجم النيجر إنتاجا، وهما منجم سومير المكشوف ومنجم كوميناك تحت الأرض في مقابل المساعدة في المجالات الأمنية والاستقرار في البلاد، الا أنه مؤخرا انهت السلطات النيجرية الاحتكار الفرنسي لليورانيوم، الذي تعد النيجر هي ثالث بلد منتج في العالم لهذه المادة مع إرتفاع أسعار اليورانيوم عالميا، وقامت بالتعاقد مع الشركات الصينية والأسترالية والكندية والهندية.

ولأن دول منطقة الساحل الإفريقي تكثر فيها الصراعات القبلية والعرقية (توجد عدة قبائل رئيسية تتكون منها النيجر قبل وصول الاستعمار الفرنسي، وهي قبائل الدجيرما وقبائل التوبو والهوسا والطوارق والكانوري) فقد اعتمدت السياسة الخارجية الفرنسية عدة آليات لمواجهة تلك الصراعات التي

ربما تعيق مصالحها، كان منها نشر وتموضع القوات الفرنسية في النيجر ومالي وربما التدخل العسكري المباشر في أوقات الضرورة.

مع هذا يعتبر الغرب والولايات المتحدة أن المصالح الاقتصادية في القارة السمراء هي مقدمة على أي اعتبار آخر؛ بالنسبة ل-فرنسا فإن اليورانيوم الذي تعتبر النيجر من اغنى الدول امتلاكا له هو أهم من بسط الديمقراطية والأمن على التراب النيجري، أما الولايات المتحدة فاهتمامها الحقيقي وشاغلها في دول غرب إفريقيا هو محاربة التنظيمات الإسلامية الجهادية.

الكاتب الأكاديمي الأميركي "هوارد دبليو فرينش" نشر مقالا تحليليا بمجلة "فورين بوليسي" حول تأثير الانقلاب الأخير ويرى أن القوى العظمى لم تقدم شيئا لأفريقيا، ولا تسعى لمساعدتها في حل أزماتها الاقتصادية، وأن اهتمام الولايات المتحدة منصب على حث بلدان

القارة السمراء على الالتزام بالحكم الديمقراطي من دون تقديم معونة تذكر في هذا الإطار، في حين ينصب اهتمامها الحقيقي على محاربة الجماعات المتطرفة في بلدان الساحل.[6]

مع ذلك ومن أجل السيطرة على ما يسمى بتنظيمات الإسلام السياسي وهي الجماعات الإسلامية الجهادية، وتأمين الانظمة الحاكمة في دول منطقة الساحل، توجهت فرنسا إلى تكوين عدة قواعد عسكرية في انحاء القارة السمراء، في النيجر وجيبوتي والسنغال والجابون، وساحل العاج وإفريقيا الوسطى وتشاد ومالي، إلا أنه نتيجة للفشل الذي منيت به فرنسا في الملفات الأمنية في معظم دول غرب افريقيا، فقد إنتهي الأمر بطرد القوات الفرنسية في مالي.

يقول الكاتب "أفيغوا إيغيوغو" في مقال على موقع orfonline تدهور التعاون العسكري بين مالي وفرنسا، وطردت القوات الفرنسية بعد 9 سنوات من العمليات. وفي أول العام الجاري،

أنهت بوركينا فاسو اتفاقا عسكريا لعام 2018 مع فرنسا وطالبت بخروج القوات الفرنسية العاملة في البلاد على الفور. وفي كلتا الحالتين، احتفل المواطنون بالخروج الفرنسي الذليل، وغالبا ما شوهدوا وهم يلوحون بالأعلام الروسية إلى جانب أعلامهم الوطنية.[7]

صحيح أن فرنسا فقدت جزءا كبيرا من نفوذها في دول إفريقيا بسبب من فشلها في تحقيق الأمن والديمقراطية المستدامة، والمساهمة في وجود حوكمة رشيدة لتلك الدول الفقيرة التي تكثر فيها النزاعات، إلا ان هذا الفشل الذي عبرت عنه شعوب تلك الدول بالتنديد بالفرنسيين والترحيب ب–روسيا، باعتبارها لاعبا دوليا قويا يمكنه فرض توازن صلب وقوي، صادف أرضية سهلة للروس للدخول على الخط وملء الفراغ في تلك الدول، وبالفعل وفي فترة وجيزة تمكنت روسيا من توقيع اتفاقيات أمنية وعسكرية من خلال مجموعة فاغنر.

يشار إلى أن روسيا ومنذ العام 2010، باتت المورد الرئيسي للتكنولوجيا العسكرية للدول الإفريقية، بل أصبحت فيما بعد أكبر مورد للأسلحة للقارة الإفريقية برمتها، متجاوزة حتى الولايات المتحدة. وكانت النسبة الأكبر لمبيعات الأسلحة الروسية إلى الجزائر (58.64%)، ثم مصر (25.96%)، فأوغندا (5.17%)، والسودان (2.63 %) وأنغولا (2.11%)، بحسب تقرير "الاتجاهات في عمليات نقل الأسلحة الدولية".[8]

ورغم أن النيجر وفرنسا قد وقعتا اتفاقيات أمنية وعسكرية تقتضي توجيه الدعم العسكري واللوجستي للنيجر، وحماية النظام الحاكم من أية تحركات عسكرية معادية، إلا أن ذلك لم يمنعها من التدخل العسكري المباشر والسافر في بعض الأحيان.

بدأ التدخل الفرنسي فى النيجر عام 2014 من خلال عملية عسكرية اطلقت عليها اسم "برخان"، بسبب الهجوم المستمر

للحركات الجهادية فى افريقيا وخاصة تنظيم القاعدة و بوكو حرام التى بدأت تهدد المصالح الفرنسية فى النيجر الاقتصادية والاستراتيجية ، خاصة بعد هجوم احد الجماعات الجهادية على احدى مناجم اليورانيوم ، والذى تعتمد عليه فرنسا فى مصادر طاقتها النووية . [9]

ورغم إستقلال النيجر ورحول المستعمر الفرنسي بأكثر من نصف قرن، إلا انه لا يزال في نفس فرنسا الرغبة الاستعلائية والاستعمارية على الشعوب الافريقية !

ان اوروبا التي سبق لبعض دولها أن تمكنت من استعمار بقية دول العالم ، اعتبارا من الكشوف الجغرافية التي انطلقت في بداية القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن العشرين، تعاملت مع شعوب الدول المستعمرة، خاصة تلك التي لم تتبنى المسيحية دينا ، بأنها شعوب بدائية تقع على أوروبا مسؤولية نقلها إلى عالم الحداثة والتحضر. ورغم أن

بعض شعوب المستعمرات القديمة حققت من الإنجازات في ميادين عديدة ما يجعلها ندا لأرقى الشعوب الأوروبية، فإن نظرة أوروبا الاستعلائية تجاهها ما تزال متغلغلة في النفوس، وتلك مسألة ما تزال تحتاج إلى معالجة جذرية.[10]

ختاما فإن التنظيمات الإسلامية الجهادية مثل تنظيم القاعدة وجماعة بوكو حرام، التي تتموضع أيضا في النيجر كانت لها أيضا أهداف ومصالح، وقد خلق ذلك الوضع رغبتين متضادتين في الرؤى والأفكار، بين تطلعات التنظيمات الجهادية والتطلعات الكولونيالية الفرنسية، ففي الوقت الذي تحاول فيه فرنسا وهي تعيد توزيع وانتشار جنودها وقواعدها العسكرية في دول غرب إفريقيا، مهتدية بالسياسة الخارجية "فرنسا أولا"، بما ينطوي عليها من الأنانية والنظر إلى المصالح فقط دون ان تكون فاعلا حقيقيا ومشاركا في القضاء على النزاعات والصراعات الإفريقية العرقية، أو المساعدة في

إرساء دعائم الديمقراطية والسلام في دول تكثر فيها النزاعات والقلاقل، والفقر والمجاعات والجهل، وانخفاض معدلات التنمية وإنتشار الأوبئة، فإنها من جانب آخر تصطدم برغبات واهداف التنظيمات الجهادية التي تسعى نحو مفهوم إعادة تشكيل المنطقة في دول الساحل وغرب إفريقيا، وهو ما يعد مؤشرا أيضا لتراجع وأفول النفوذ الفرنسي في تلك المنطقة.

**المصادر:**

[1]_انظر: لوموند: بسقوط بازوم تخسر فرنسا أحد آخر حلفائها في غرب إفريقيا، موقع صحيفة القدس العربي، 27يوليو /تموز 2023،(تاريخ الدخول: 15 اغسطس /آب 2023):

https://www.alquds.co.uk/%D9%84%D8%%-D9%88%D9%85%D9%88%D9%86%D8%AFD8%A8%%-A8%D8%B3%D9%82%D9%88%D8%B7%D8%AA%D8%-D8%A7%D8%B2%D9%88%D9%85D9%81%D8%B1%D9%86%%-AE%D8%B3%D8%B1D8%-D8%A3%D8%AD%D8%AF%-D8%B3%D8%A7/D8%AD%-A2%D8%AE%D8%B1%

[2]_نبيل زكاوي، مآلات النفوذ الفرنسي في إفريقيا، مركز الجزيرة للدراسات، 25 أكتوبر/تشرين الأول 2022،(تاريخ الدخول: 10 اغسطس /آب 2023):

https://studies.aljazeera.net/ar article/5482/

[3]_انظر: فرنسا تعلن دعمها جهود إيكواس لإحباط الانقلاب في النيجر،موقع dw، 15اغسطس/آب2023، (تاريخ الدخول: 15 اغسطس /آب 2023):

https://www.dw.com/ar/%D9%81%D8%
D8%AA%D8%B9%%-B1%D9%86%D8%B3%D8%A7
D8%AF%D8%B9%D9%85%D9%%-D9%84%D9%86
-D8%AC%D9%87%D9%88%D8%AF%-D8%A7%87
D8%A5%D9%8A%D9%83%D9%88%D8%A7%D8%%
B

[4]_نبيل زكاوي، مصدر سابق

[5]_بشر شبيب، "عربي21" ترصد خريطة الصراع على "كعكة أفريقيا".. ماذا يحدث في القارة السمراء؟، موقع عربي21، 10اغسطس/آب 2023، (تاريخ الدخول: 10 اغسطس /آب 2023):

https://arabi21.com/story/153034
D8%A%-D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A21%/2
D8%AE%D8%B1%D%-A%D8%B1%D8%B5%D8%AF
D8%B%84%D8%A7%D9%-8A%D8%B7%D8%A9%9
D8%B9%D9%84%D%-D8%B1%D8%A7%D8%B9%5

D8%%-D9%83%D8%B9%D9%83%D8%A9%-89%9
A3%D9%81%D8%B1%D9%8A%D9%82%D9%8A%D
D9%%-D9%85%D8%A7%D8%B0%D8%A7%-A7%8
-D9%81%D9%8A%-8A%D8%AD%D8%AF%D8%AB
D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D8%B1%D8%%
D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%85%D8%B1%%-A9
D8%A7%D8%A1

[6]_فورين بوليسي: انقلاب النيجر يشكل نقطة تحول في أفريقيا، موقع الجزيرة نت، 9 اغسطس /آب 2023، (تاريخ الدخول: 15 اغسطس /آب 2023):

https://www.aljazeera.net/politi
cs/2023/8/9/%D9%81%D9%88%D8%B1%D9%
D8%A8%D9%88%D9%84%D9%8A%%-8A%D9%86
D9%%82%D8%A7%D9%86%D9%-D8%B3%D9%8A
D8%A7%D9%84%D9%86%%-D8%A7%D8%A8%84
D9%86%D9%82%D8%%-D9%8A%D8%AC%D8%B1
D8%AA%D8%AD%D9%88%D9%84%-B7%D8%A9

[7]_أفيغوا إيغيوغو، مستقبل النيجر واستقرار المنطقة بأكملها على المحك، موقع صحيفة الميادين، 17اغسطس /آب

2023، (تاريخ الدخول: 11 اغسطس / آب 2023):

https://www.almayadeen.net/press/D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%A8%D9%85%D9%85%

[8]_بشر شبيب، مصدر سابق

[9]_اسراء محمد فوزى فهمى الاكشر، السياسة الخارجية الفرنسية تجاه الصراعات العرقية فى افريقيا، المركز الديمقراطى العربى16يوليو /تموز 2016، (تاريخ الدخول: 15 اغسطس / آب 2023):

https://democraticac.de/?p=34092

[10]_حسن نافعة، مشاهد كاشفة عن تصاعد العنصرية الأوروبية، موقع صحيفة الميادين، 6 يوليو/تموز 2023، (تاريخ الدخول: 10 اغسطس / آب 2023):

https://www.almayadeen.net/opini-on/%D9%85%D8%B4%D8%A7%D9%87%D8%AF%D8%-D9%83%D8%A7%D8%B4%D9%81%D8%A9%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%B9%-B9%D9%86%

D8%B9%D9%86%D8%84%D8%A7%D9%-D8%AE%

B5%D8%B1%D9%8A%D8%A%

## متوالية الانقلابات العسكرية في إفريقيا: النيجر .. اللي بعده !

يعرف الانقلاب العسكري بأنه محاولة فرض واقع جديد في الدولة باستخدام القوة الصلبة، نتيجة لاخطاء جسيمة ومتراكمة كان السبب الرئيس والأساس فيها هو النظام السابق واركانه، وكانت محصلتها الكارثية هي الانهيار الكامل في كافة مرافق الدولة اقتصاديا وأمنيا وسياسيا ومجتمعيا .

ويعرف أيضا بأنه عملية عسكرية سريعة ودقيقة لإزاحة قائد الدولة من منصبه، واستبداله بغيره، سواء كان قائد الانقلاب نفسه، أو من يختاره هذا ويعينه لقيادة الدولة، أو أنه مسار

مدروس وخطير يتم من خلاله تحييد قوى الجيش ووسائل الإكراه السياسي الأخرى، كما يتم فرض حالة من السلبية على القوى السياسية .[1]

وفي تعريف آخر أنه الاستيلاء على السلطة في مركزها الرئيسي، بما يمكن من بسط النفوذ على كافة أرجاء الدولة.[2]

في عشرينات هذه الالفية، شهدت القارة السمراء عدة انقلابات واضطرابات عسكرية، فقد كان انقلاب مالي، في 24 مايو/أيار 2021، وانقلاب بوركينا فاسو، في 24 يناير/كانون الثاني 2022، وتمرد عسكري في السودان 14ابريل/نيسان 2023 ثم انقلاب النيجر في 26 يوليو/تموز 2023 الذي قامت به مجموعة من عناصر الحرس الرئاسي.

تقع النيجر في غرب إفريقيا، يحدها من الشمال الجزائر وليبيا ومن الجنوب نيجيريا وبنين ويحدها من الغرب بوركينا فاسو ومالي ومن الشرق تشاد،

ويبلغ تعداد سكانها 24 مليون نسمة الأغلبية منهم مسلمون.

طلب الرئيس "بازوم" فور وقوع الانقلاب وفي أول تصريح له المساعدة من الولايات المتحدة والمجتمع الدولي: " أدعو الحكومة الأمريكية والمجتمع الدولي بأسره إلى مساعدتنا في استعادة النظام الدستوري".. واضاف: "ان هذا الانقلاب ليس له أي مبرر".[3]

ويعتبر " محمد بازوم " أول رئيس عربي على النيجر من أصول عربية ليبية تعد من الأقليات في البلاد، ولد في الأول من يناير/كانون الثاني 1960، وشغل العديد من المناصب العليا في حكومة الرئيس السابق "محمدو إيسوفو"، فكان وزيرا للخارجية والداخلية والشؤون الدولية. وتولى رئاسة النيجر عام 2021 من خلال الانتخابات، ليكون أول رئيس يصل للسلطة من دون انقلاب عسكري. [4]

المتحدث باسم وزارة الخارجية الصينية قال بعد وقوع الانقلاب،

موضحا الموقف الصيني: تدعو الصين الأطراف المعنية في النيجر إلى العمل من أجل المصالح الأساسية للبلاد وشعبها ، وحل خلافاتهم سلميا من خلال الحوار، واستعادة النظام الطبيعي في أقرب وقت ممكن، وحماية السلام والاستقرار والتنمية في البلاد.

أما مستشار الأمن القومي بالبيت الأبيض فقد ادان اعاقة الحكومة الديمقراطية: ندين بشدة أي محاولة لاعتقال أو لإعاقة عمل الحكومة المنتخبة ديمقراطيا في النيجر والتي يديرها الرئيس" بازوم".

ودعت "ماريا زاخاروفا " المتحدثة باسم وزارة الخارجية الروسية جميع الاطراف الى الامتناع عن استخدام القوة: نعول على الإفراج السريع عن الرئيس بازوم من قبل الجيش.. وندعو جميع أطراف النزاع إلى الامتناع عن استخدام القوة، وإلى حل جميع الخلافات من خلال الحوار السلمي والبناء.

وزير الخارجية الأمريكي" بلينكن" قال: تحدثت مع الرئيس بازوم في وقت سابق هذا الصباح، وقلت له بوضوح إن الولايات المتحدة تدعمه بقوة بصفته رئيسا للنيجر منتخبا بشكل ديمقراطي.

وحتى تكون الصورة واضحة لفهم حقيقة ما جرى في النيحر واعلان العقيد "أمادو عبد الرحمن" الاطاحةب- الرئيس" محمد بازوم" فانه ينبغي معرفة حيثيات الصراع داخل الحزب الحاكم بالنيجر ،فقد ظل الرئيس السابق، "محمدو إيسوفو" ممسكا بتفاصيل الحزب ومهيمنا عليه حتى بعد مغادرته السلطة لاحقا وانتخاب اللواء "محمد بازوم" الذي تربطه علاقة تاريخية طويلة به، إذ تشارك الاثنان في تأسيس الحزب الوطني الديمقراطي الاجتماعي عام 1990، ثم صار" بازوم" نائبا ل-"إيسوفو" في رئاسة الحزب عام 2004. وبعد تولي "إيسوفو" رئاسة البلاد عام 2011، تولى "بازوم" رئاسة الحزب.

يرى المراقبون للوضع بالنيجر أن هناك صراعا صامتا ما فتئ يتفاعل بين الرئيس السابق، "إيسوفو" وسلفه ووزير خارجيته ورفيقه في السياسة الرئيس المطاح به" بازوم". ويظهر ذلك في أنه ما إن بدأ الرئيس "بازوم" في تعيين قيادات سياسية وعسكرية موالية له في مناصب سامية سواء في أجهزة الدولة أو في المؤسسة العسكرية، ومقصيا بذلك حلفاء وأنصار سلفه الرئيس "إسوفو"، حتى بدأ الخروج على" بازوم" يتبلور والتفكير في الإطاحة به يتحدد. وقد فهم من تعيينات "بازوم" أنها محاولة لتقليم أظافر سلفه "إيسوفو"، والإطاحة بالرؤوس التي يعتمد عليها في أجهزة الدولة وفي المؤسسة العسكرية، والتي كانت الضامن لحضوره الفاعل وهو خارج الجهاز التنفيذي.[5]

ترجع معظم التقارير المحلية في النيجر السبب وراء هذا الانقلاب العسكري إلى خلافات سياسية داخل الحكومة، حيث قرر الرئيس الحالي" محمد

بازوم" إجراء تغييرات في الجيش النيجري، واستبدال رئيس أركان الجيش ورئيس الدرك الوطني في أبريل 2023. وقرر "بازوم" أيضا إبعاد الجنرال "تشياني" من قيادة الحرس الرئاسي تدريجيا، مما أدى إلى انقسام داخل الحرس ودفع ببعض أعضائه إلى الانقلاب ضده وفي يوم الجمعة الموافق 28 يوليو 2023 عين "عبد الرحمن تشياني" نفسه رئيسا للحكومة الانتقالية تحت مسمى "المجلس الوطني لحماية الوطن"، وذلك بعد يومين من إطاحة وحدته بـــ"بازوم" الرئيس المنتخب ديمقراطيا. وأشار المجلس العسكري إلى أن السبب وراء خطوتهم هو تدهور الوضع الأمني [6]

ولان "بازوم" ينتمي الى قبيلة أولاد سليمان العربية التي يقطن فرع منها النيجر، بينما تتركز غالبيتها في جنوب ووسط ليبيا، وتنحدر أصولها من قبائل بني سليم العربية العدنانية القيسية وسط الجزيرة العربية، وهي قليلة العدد مقارنة بقبيلة الهوسا التي تشكل60%

من السكان في النيجر، ولأن افراد الهوسا يعتقدون ان لهم الفضل واليد العليا في استلام" بازوم "للسلطة لأن ناخبوهم كانوا سببا رئيسا في تقلده اعلى المناصب القيادية في الدولة، في الوقت الذي كان فيه يقلد افرادا وعناصر عربية مناصب عليا في التعيينات الاخيرة، فقد اضفى ذلك كله على المشهد طابعا عنصريا وقبليا بين المجموعات العربية والافريقية.

وفي محاولة لوأد الانقلاب وتحييده دخلت على الخط دول المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (إيكواس)، وقامت بفرض عقوبات على نيامي تشمل عقوبات تجارية ومالية ، بل انها هددت بالتدخل العسكري واستخدام القوة اذا فشل الحرس الجمهوري في إعادة" بازوم " إلى السلطة وأصدرت (ايكواس) بيانا وصفت فيه الأحداث في النيجر بأنها محاولة انقلاب، وإنها تدين بأشد العبارات محاولة الاستيلاء على السلطة بالقوة. [7]

واضاف مفوض الشؤون السياسية والأمن في المنظمة الإقليمية انه تم تحديد كل عناصر التدخل العسكري المحتمل، بما في ذلك الموارد اللازمة، وكذلك كيف سننشر القوة ومتى؟ [8]

مع هذا فقد هدد المجلس العسكري الانقلابي من جانبه بمهاجمة مجموعة الإيكواس في حال قيامها بالتدخل العسكري في النيجر، وقال: إن أي عدوان ضد دولة النيجر سيشهد ردا فوريا ودون إنذار من جانب قوات الدفاع والأمن النيجرية على أي عضو من المنظمة باستثناء الدول الصديقة.

ولان المجلس العسكري الغي عدة اتفاقيات عسكرية مبرمة مع فرنسا في مجال الأمن والدفاع، وتحديدا الاتفاقيات الخاصة بتموضع الكتيبة الفرنسية وبوضع الجنود الموجودين في إطار المعركة ضد بعض الجماعات الإسلامية المسلحة فقد رفضت فرنسا، إعلان قادة الانقلاب في النيجر إلغاء اتفاقيات للتعاون العسكري مع باريس، قائلة إن

"سلطات النيجر الشرعية" وحدها هي التي تملك سلطة الفسخ وقالت وزارة الخارجية الفرنسية في بيان لها : تذكر فرنسا بأن الإطار القانوني لتعاونها مع النيجر في مجال الدفاع يستند إلى اتفاقات أبرمت مع السلطات النيجرية الشرعية. وأضافت: أن فرنسا تعترف شأنها في ذلك شأن كامل الأسرة الدولية، فقط بهذه السلطات.[9]

من جانبها رفضت أيضا الولايات المتحدة اعلان الانقلاب العسكري وذكرت صحيفة "وول ستريت جورنال" ان الانقلاب يهدد بتعطيل استراتيجية الولايات المتحدة بأكملها لمحاربة "الإسلاميين المتشددين" الذين يوسعون مجال تأثيرهم في غرب أفريقيا، ومن المحتمل أن يمنح روسيا فرصة استراتيجية، في الوقت الذي تحاول فيه توسيع نفوذها بالمنطقة.[10]في اشارة الى الوجود الأمريكي في النيجر (حوالي 1000 جندي أمريكي وقاعدتين عسكريتين لأغراض

مكافحة الإرهاب والعمليات المشتركة مع القوات العسكرية النيجرية ) .

بعد هذا يسوغ القول ان الدولة اصبحت امام عدة تيارات ومعضلات ظاهرة، منها هو حجم الوجود العسكري الاجنبي المتزايد والمتوضع على اراضيها ، والذي يستهدف اصلا التنظيمات الاسلامية المتشددة، مثل تنظيم الدولة الإسلاميةوالقاعدة وتنظيم بوكو حرام .

ثانيا : صد ومواجهة الطامعين في خام اليورانيوم (يوجد في النيجر اكبر إحتياطيات اليورانيوم في العالم، ووفقا لبيانات البنك الدولي فان اليورانيوم يعد ثاني اكبر صادرات النيجر من الناحية النقدية، وتعتبر النيجر مصدرا رئيسيا لليورانيوم في دول الاتحاد الاوروبي)

ثالثا : محاولة انقاذ الدولة من الوضع المتردي سياسيا وأمنيا .

إن انظمة الاستبداد التي تمسك بكل شئ؛ سواء في افريقيا أو اي قارة اخرى،

مهما علت وتكبرت فانها فيما اتصور تسير الى نهايتها وزوالها في متوالية متتابعة. في كتابه (نظام التفاهة)يقول "آلان دونو": إن التافهين قد حسموا المعركة لصالحهم في هذه الأيام، لقد تغير الزمن زمن الحق والقيم ، ذلك أن التافهين أمسكوا بكل شيء، بكل تفاهتهم وفسادهم؛ فعند غياب القيم والمبادئ الراقية، يطفو الفساد المبرمج ذوقا وأخلاقا وقيما. [11]

**المصادر:**

[1]_زين الدين حماد، كيف تصنع انقلابا عسكريا ناجحا، (المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية، 2016)، ص 3

[2]_المصدر السابق، ص3

[3]_انظر: قادة الانقلاب في النيجر يهددون بمهاجمة "إيكواس".. وبازوم يطالب أمريكا والمجتمع الدولي بالتدخل، موقع الجزيرة مباشر، 4 اغسطس/آب 2023، (تاريخ الدخول: 7 اغسطس/آب 2023):

https://www.aljazeeramubasher.net/news/politics/2023/8/4/%D9%82%D8%D8%A7%D9%84%D8%A7%-A7%D8%AF%D8%A9%D9%-D9%86%D9%82%D9%84%D8%A7%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%8A%-D9%8A%81%D8%AC%D8%B%

[4]_ انظر: أول رئيس عربي ومنتخب في النيجر.. كل ما تريد معرفته عن محمد بازوم الذي وقع الانقلاب ضده، عربي

بوست، 27 يوليو /تموز 2023، (تاريخ الدخول: 8 اغسطس/آب 2023):

https://arabicpost.live/%D8%AA%DAD%D9%84%D9%8A%D9%84%D8%A7%D8%AA%8D8%A7%D9%86%D9%82%D9%%/27/07/2023/D8%A7%D8%A%84

[5]_سيدي احمد ولد الأمير ، الانقلاب العسكري في النيجر: الأسباب والتوجهات، مركز الجزيرة للدراسات، 28 يوليو/تموز 2023، (تاريخ الدخول: 8 اغسطس/آب ( 2023:

https://studies.aljazeera.net/ar article/5702/

[6]_ محمد طاهر زين، انقلاب النيجر: أسبابه وأبعاده وتداعياته، الافارقة للدراسات والاستشارات، 28، يوليو/تموز 2023، (تاريخ الدخول: 8 اغسطس/آب 2023: )

https://alafarika.org/ar/5603/%da7%d9%86%d9%82%d9%84%d8%a7%d8%a8%8

d9%8a%d8%ac%d8%86%d8%a7%d9%84%d9%-
%

[7]_انظر: انقلاب النيجر.. كل ما تريد معرفته عما يحدث في آخر معاقل فرنسا، ومن المستفيد؟، عربي بوست، 27 يوليو /تموز 2023،(تاربخ الدخول: 8 اغسطس/آب 2023):

https://arabicpost.live/%D8%AA%D
AD%D9%84%D9%8A%D9%84%D8%A7%D8%AA%8
D8%A7%D9%84%D9%86%D9%%/27/07/2023/
8A

[8]_انظر: النيجر.. مئات يتظاهرون أمام المسجد الكبير في نيامي رفضا للتدخل العسكري في البلاد، موقع الجزيرة مباشر،4اغسطس/آب 2023،(تاريخ الدخول: 7 اغسطس/آب 2023):

https://www.aljazeeramubasher.ne
t/news/politics/2023/8/4/%D8%A7%D9
D9%85%-D9%86%D9%8A%D8%AC%D8%B1%84%
D9%8A%D8%AA%D8%-D8%A6%D8%A7%D8%AA%
-B8%D8%A7%D9%87%D8%B1%D9%88%D9%86%

D8%A7%D9%-D8%A3%D9%85%D8%A7%D9%85%
D9%85%D8%B3%D8%AC%D8%AF%84%

[9]_انظر: فرنسا: "سلطات النيجر الشرعية" وحدها المخولة إلغاء الاتفاقيات العسكرية مع باريس، موقع الجزيرة مباشر، 4 اغسطس/آب 2023، (تاريخ الدخول: 7 اغسطس/آب 2023):

https://www.aljazeeramubasher.ne
t/news/politics/2023/8/4/%d8%a7%d9
d8%ae%d8%a7%d8%b1%d8%ac%d9%8a%%84
d8%a

[10]_WSJ: انقلاب النيجر يقلب الخطط الأمريكية بغرب أفريقيا ويمنح روسيا فرصة، موقع عربي 21، 29 يوليو /تموز 2023، (تاريخ الدخول: 7 اغسطس/آب 2023):

https://www.google.com/amp/s/ara
25D%-bi21.com/storyamp/1527978/WSJ
25A7%25D9%2586%25D9%2582%25D9%25%8
25D8%25A7%%-25D8%25A7%25D8%25A8%84

25D9%2584%25D9%2586%25D9%258A%25D8
25D9%258A%25D9%25%-25AC%25D8%25B1%
25D8%25A7%%-25D9%2584%25D8%25A8%82
25D9%2584%25D8%25AE%25D8%25B7%25D8
25D8%25%25D8%25A7%25D9%2584%-25B7%
A3%25D9%2585%25D8%

[11]_آلان دونو ،نظام التفاهة

## فاعلية ودور الإتحاد الإفريقي تجاه النزاعات العسكرية الإفريقية

لم يكن ملفتا للنظر أو جاذبا للانتباه في الأيام القليلة الماضية بعد وقوع الإنقلاب العسكري في الغابون، أن يعلن مجلس السلم والأمن التابع للاتحاد الإفريقي عن تعليق عضوية الغابون في أعمال المنظمة لحين استعادة النظام الدستوري في أول إجراء عملي يقوم به بعد الإطاحة بالرئيس "علي بونغو" رئيس الجمهورية الغابونية، وفي إجراء مشابه تماما لكل النزاعات الإفريقية منذ تأسيسه عام 2004 بموجب بروتوكول القانون التأسيسي الذي اعتمدته الجمعية العامة للاتحاد الإفريقي.

في ستينات القرن الماضي أسس الزعيم الغاني "كوامي نكروما " منظمة الوحدة الإفريقية ، تلا ذلك ظهور العديد من المحاولات لتوحيد القارة في منظمة إفريقية جامعة تعمل على إنهاء الحروب وإستتباب الأمن في انحاءها ، فتأسست بعد منظمة الوحدة الإفريقية 25 مايو 1963 الجماعة الإقتصادية الإفريقية في عام 1981 وما أن حل منتصف التسعينات حتى كانت فكرة إنشاء الاتحاد الإفريقي بقيادة الزعيم "معمر القذافي" تظهر إلى حيز الوجود ، وبحلول عام 2000 تم اعتماد القانون التأسيسي للإتحاد في قمة لومي وفي العام 2002 تم تأسيس الاتحاد الإفريقي من 55 دولة من أجل غايات تعميق التفاهم بين الشعوب، والقضاء على ظاهرة الفصل العنصري، والحل السلمي للنزاعات بين الدول الأعضاء والعمل على حماية سيادة الدول وسلامتها الإقليمية ، وتعزيز السلام والأمن والاستقرار في القارة باعتباره أحد أهم أهداف الاتحاد الإفريقي.

ومن أجل تلك الأهداف تم بموجب بروتوكول القانون التأسيسي تكوين مجلس السلم والأمن الأفريقي المكون من خمسة عشر عضوا ينتخبون على أساس إقليمي من قبل الجمعية العامة، باعتباره المحقق للأمن الجماعي للشعوب،والباعث للإنذارات المبكرة في الوقت الفعال والمناسب لإدارة الأزمات، بجانب تحمله مسؤوليات أخرى مثل منع وإدارة وتسوية الصراعات والنزاعات، ووضع سياسيات للدفاع المشترك، وإعادة بناء وتأسيس السلام بعد انتهاء الصراعات.

ولأجل تفعيل مهامه وإجادة دوره، فقد عرف مجلس السلم والأمن التغييرات غير الدستورية التي ربما تقع داخل الدولة تعريفا كاملا شاملا، ومن ثم تعتبر الدولة عرضة لتوقيع العقوبات إذا ارتكبت هذه التغييرات، بدءا بتعليق العضوية وانتهاء بالتدخل العسكري، وهي تتضمن الإنقلاب العسكري على حكومة منتخبة ديمقراطيا، أو تدخل المرتزقة

لإستبدال حكومة منتخبة ديمقراطيا، أو إسقاط حكومة منتخبة ديمقراطيا من قبل مجموعات مسلحة أو من قبل حركات متمردة، أو رفض حكومة قائمة التخلي عن السلطة للحزب الفائز في إنتخابات حرة ونزيهة وقانونية.

وتتكون بنود المجلس العقابية من إدانة التغيير غير الدستوري أولا، ثم تعليق عضوية الدولة وفرض عقوبات على الأفراد المتسببين في التغيير غير الدستوري مثل عدم منح التأشيرات وفرض عقوبات تجارية وحظر الأسلحة والآليات العسكرية، ثم منح 6 أشهر للمتسببين في التغيير غير الدستوري بغرض إعادة النظام الدستوري، وفي حالة إخفاق هذه الوسائل فإن للاتحاد حق التدخل العسكري لكن تم تقييد ذلك بوجود حالات الإبادة وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية وفقا للقانون الدولي.

مع ذلك فقد دخل مجلس الأمن والسلم الإفريقي في حالة من انعدام الأفق والتوتر بحسب تأكيد عدد من

الدبلوماسيين والمراقبين في إتخاذ قرار بشأن الانقلاب في النيجر، ورفض المجلس آخر الامر إستخدام القوة واكتفى بتوقيع العقوبات وتعليق عضوية النيجر في الاتحاد الإفريقي، ووفق ما نقلته صحيفة لوموند فإن دبلوماسي من الإتحاد الإفريقي قال: بينما نتذكر سياستنا المتمثلة بعدم التسامح مطلقا بمواجهة التغييرات غير الدستورية للحكومة، اخترنا عدم دعم التدخل العسكري بالنيجر، لأنه قد يؤدي إلى حمام دم ويسبب ضررا أكثر مما هو موجود حاليا.

ولأن طبيعة الشعوب الحرة لا تقبل أي تدخل عسكري خارجي، خاصة إذا كانت السلطة الحاكمة السابقة هي سلطة فاشلة ومستبدة، وأودت بالبلاد إلى مزالق وهاوية اقتصادية وأمنية وسياسية، فقد رفضت السلطات وساندها في ذلك الشعب في النيجر أي تدخل خارجي.

" ماريا صالح" عضو المكتب القيادي للحركة الوطنية لحماية الوطن في النيجر، أكدت أن الشعب النيجري هو من

سيواجه التدخل العسكري في حال حصوله من قبل المجموعة الإقتصادية لدول غرب إفريقيا، ورفضت أي شكل من التدخلات العسكرية الخارجية: يجب على إيكواس أن تدرك أن الشعب في انتظارها، وأنه لا يخشاهم، وإن كان يعلم أنهم يهددون فقط، لكن في حال حصل التدخل العسكري فإن النيجريين هم من سيقاومون، وسيظلون شعبا موحدا أمام أي عدوان خارجي.

وليس تعامل مجلس السلم والأمن في الاتحاد الإفريقي مع معضلة الغابون والنيجر كان منفردا، لكن في واقع الأمر كان نسخة طبق الأصل من الموقف مع مالي وبوركينا فاسو وغيرهم فهو يتعامل مع التغييرات غير الدستورية بالتدابير غير العسكرية فقط، ويقتصر دوره فقط على تعليق العضوية ومعاقبة المسؤولين عن التغييرات غير الدستورية، ويحث دائما على التعجيل في العودة إلى النظام الدستوري حتى لو عاد الجنرالات الانقلابيين من باب انتخابات حرة

وديمقراطية، وهنا تظهر مشكلة في فعالية ودور الاتحاد الإفريقي؛ فهو يمارس النمطية والرتابة دون أي دور حقيقي وفعال في منع النزاعات التي تتطور وتتفاقم إلى ان تصل الدولة لمرحلة الاحتقان ثم انسداد الأفق السياسي ثم الانقلاب العسكري أو يعمل المجلس على تسوية الصراعات وإدارة سيناريوهات الأزمات والمساعدة في تفكيك حيثيات الأزمة قبل تفاقمها!

وبالتأمل في الأسباب التي قللت من فاعلية ودور الاتحاد الإفريقي التي ظل فيها على مدى عقدين من الزمان يعلق عضوية الدول التي تمارس فيها تغييرات غير دستورية، ثم يمنحها حيزا زمنيا لمعالجة هذا التجاوز بما يشبه طوق النجاة للحكام الجدد، فإنه في تقديري بحاجة ماسة وملحة أكثر من أي وقت مضى لتفعيل دوره بشكل أكثر فعالية بما ينطوي عليه هذا الدور في المشاركة الجادة في حلحلة النزاعات بطرق سلمية عن طريق المفاوضات والحوار والوساطات

التي تقود في نهاية الأمر لنزع فتيل الاحتقان والتوتر وتحقق السلم والأمن وتسكت المدافع.

ربما تكون من أسباب هذا التعثر الذي إعترى الإتحاد الإفريقي ومجالسه، هو حالة الإستقطاب الحاد من قبل الفواعل الغربية التي تحتمي بها الدول الإفريقية، وضغط اللوبيات الإقليمية والدولية التي لها مآرب ومصالح خاصة في البلد المنكوب،غير عابئة بالأرواح التي تزهق والدماء التي تسفك، وربما التبعية الاستعمارية التي لا يزال بعضها في الدول الإفريقية، أو بسبب من مصالح الدول الأعضاء وتضاربها أحيانا وخلافاتها البينية وهي أكثر من ان تحصى، لذا فإنه من المستبعد أن نجد مواقفا وأدوارا تتسم بالفعالية والسخونة للاتحاد الإفريقي مثلما هو الحال في الاحلاف الغربية مثل حلف الناتو، وأكثر ما نستطيع ان نشبه به الاتحاد الإفريقي في أدواره التي في غالبها لا تخرج من إطار الإدانة وتعليق

العضوية، هو الجامعة العربية التي اقتصر دورها العظيم تجاه الأمة العربية على الشجب والإدانة والاستنكار والقلق لذات الأسباب.

## إشكالية الإحتمال الثالث في الدولتين المتحاربتين

في ظل نظام عالمي يتسم بالفوضى والسيولة وتبادل الادوار والمتغيرات السياسية والمصالح المتعاقبة والمتلاحقة، ليس غريبا بالمرة أن نشاهد تفجر الصراعات والنزاعات في أنحاء متفرقة من العالم وتغليب لغات المصالح والمنفعة والضرورات على أي اعتبارات أخرى، لذا فقد تتابعت الحروب والنزاعات وتواصل تغير المواقف والمبادئ، وتشكيل أنواع متعددة من التحالفات والتكتلات، وباتت أصدقاء الأمس هم أعداء اليوم وأعداء الأمس هم أصدقاء اليوم.

وحتى نصل إلى معضلة الاحتمال الثالث سنفترض جدلا أن حربا اندلعت بين

دولتين، أو حتى بين قسمين في الجيش، فإنه توجد ثلاثة احتمالات لهذه الحرب؛ إما أن تنتصر الدولة أ على الدولة ب وإما أن تتجرع الهزيمة؛ والاحتمال الثالث هو أن تتوقف الحرب نتيجة دوافع ذاتية لكلا الطرفين المتصارعين، أو نتيجة تدخل وسطاء لحل النزاع وإيقاف الحرب.

صحيح أن لهذه الحرب المفترضة أو الحقيقية على أرض الواقع، آثارا على الدول والأطراف المجاورة، وقد تكون الأضرار قطعا سلبية بنسبة كبيرة على الأطراف المحيطة، لكن هناك أيضا أطراف مستفيدة مثل تجار الأزمات وجماعات المصالح التي تتصل بصناعة وتطوير السلاح، وفي هذه الحالة تقوم تلك الجماعات بالضغط على صناع القرار لإطالة أمد الصراع لفترات طويلة من أجل مصلحتها المادية المكتسبة من تجارة وبيع السلاح، وتطوير الآت القتال.

الإحتمال الثالث الذي تحدثنا عنه هو تدخل وسطاء لإيقاف الحرب بدوافع

إنسانية محضة للوصول لحالة الأمن والسلم، لكن يرافق ذلك وسطاء لا يريدون إيقاف الحرب بين الدولتين المتصارعتين، بل تستمر في ضراوتها وإستعارها إلى ان يحقق الطرف أو الدولة ب التي ينحاز لها نصرا كاسحا. عن هذا الاحتمال الثالث والطرف الثالث سأخصص باقي المقال.

الطرف الثالث هو طرف وفاعل يعتقد أن المصلحة أو المنفعة مقدمة على كل شيء، وأنه ينبغي تحصيلها أو كسبها بكل الوسائل والأثمان، حتى وإن تعارضت تلك المنفعة أو المصلحة مع مبادئه أو ثوابته، بل أنه يمكن التغاضي والتنازل عن تلك المبادئ أو الثوابت بعض الوقت حتى تتحقق المنافع والمصالح، وهي من ثم نقائص ميكافيلية تعتقد بالتنازل عن قيم الخير والعدل وتبرر الوسيلة من أجل غاية المصلحة والمنفعة والسلطة، وإن كان في ظاهر الأمر يبدو هؤلاء بعيدين كل البعد عن هذه النقائص والمعيبات!

مع هذا ليس من مصلحة هذا الطرف انتهاء الحرب بصورة سلمية ووقف نزيف الدم، لأن ذلك من شأنه أن يتسبب في أضرار كثيرة تتمثل في عدم تحصيل أهداف الطرف الثالث كاملة، كأن تكون هذه المصالح مواقع إستراتيجية في الدولة أ مثل انشاء قواعد عسكرية أو موانئ تستطيع معها الحصول على درجة تحكم أفضل في الإقليم، أو الموارد الطبيعية التي تمتلكها الدولة بكميات ضخمة، أو زيادة النفوذ الاقليمي لها في المنطقة والقابل للزيادة والتوسع لاحقا. الأهداف والمصالح إذن إما إستراتيجية أو اقتصادية أو سياسية أو مجموع ذلك كله.

غير ان دخول الطرف الثالث في الحرب بين الدولة أ و الدولة ب التي ينشد لها النصر ليس لأجل الدولة وحماية سيادتها، لكن للمصالح التي ذكرتها آنفا، وقد لا يتطلب دخول هذا الطرف الخبيث أو الفاعل الخبيث وضوحا وظهورا في الميدان، إذ يكفي أن يدير المعارك ويضع الخطط الحربية ويتكفل بالإمداد

الحربي والدعم اللوجستي من بعد أو ما يسمى حربا بالوكالة.

في حروب الوكالة أو تمرير المسؤولية للآخرين تقوم الدولة بتحويل عبء الدخول في الحرب لدولة أخرى، ومن أجل إنجاز مهمة تمرير المسؤولية، فان الدولة تتصرف ببراءة كاملة مع الدولة أ المنافسة، بل أنها تقيم معها علاقات دبلوماسية جيدة، وتدفع الدولة ب التي ستخوض غمار الحرب إنابة عنها من غير أن تشعر الأخيرة بأنها مدفوعة للحرب.

هناك احتمالين إما أن تنجح الدولة ب في الحرب على الدولة أ المنافسة والخصم الرئيس، وأما أن تفشل وتهزم في الحرب هزيمة نكراء، نجاح الدولة ب في الحرب وتحقيق نصر كاسح على الدولة أ هو مطلب الدولة الممررة للمسؤولية، أما إذا تضخمت قوة الدولة ب بعد هذا الانتصار المؤزر، وهو أمر محتمل ومتوقع أيضا فربما يكون هذا في حد ذاته قلقا جديدا للدولة الممررة، وإذا فشلت الدولة ب في الحرب على الدولة أ فإنه

لن يكون أمام الدولة الممررة إلا أن تلزم هدوءها المصطنع، مثلما تفعل دولة مميزة في المنطقة هذه الآونة.

مع هذا فإن الطرف الثالث الذي من مصلحته إطالة أمد الحرب من جهة وإيقاع الهزيمة من جهة ثانية آخر الامر بالدولة أ فان ذلك الطرف الثالث في عالم توازن القوى أو الذئبية البشرية التي يصفها "هوبس" سيفأجا بالطرف الرابع، وهو فاعل قوي أيضا لا يقل عنه قوة في النظام العالمي، وليس من أهداف هذا الرابع بسط الهيمنة والنفوذ في اطراف العالم وحسب، لكن متابعة الفواعل الأخرى وتحجيمها، بقصد إضعاف وإفشال إن لم يكن هزيمتها في كل موقع وموضع. وفي هذه الحالة فانها ستدعم بكلياتها الدولة أ أو القسم أ في ذات الدولة محل الصراع ويكون هذا الدعم عسكريا ولوجستيا ومعنويا مثل توقيع العقوبات الإقتصادية وتجميد الأرصدة على الدولة ب أو القسم ب في هذه الحالة فقد تجاوزت الحرب الدولة أ و

ب والتقت بين فاعلين أو قطبين يسعى كل منهما الانتصار على الآخر، من غير أن يكونا ظاهرين في المنازلة وجها لوجه.

يقول "هانس مورجانثو" إن الدولتين أو ب المتنافستين مع بعضهما تجدان أمامهما ثلاثة خيارات لتدعيم وتطوير مراكز قواهما، فبامكانهما أن تزيدا من قوتهما وبامكانهما أن تضيفا الى قوتهما قوى دول أخرى، وبامكانهما أن تسحب كل منهما من قوة الخصم قوى الدول الأخرى، فإذا اختارتا السبيل الأولى فإن عليهما أن تدخلا في سباق للتسلح، اما إذا اختارتا السبيل الثانية أو الثالثة فانهما اختارتا سبيل الاحلاف.

يعرف الحلف في القانون الدولي والعلاقات الدولية بأنه علاقة تعاقدية بين دولتين أو أكثر يتعهد بموجبها الفرقاء المعنيون بالمساعدة المتبادلة في حالة الحرب، وسياسة الأحلاف هي بديل لسياسة العزلة التي ترفض أي مسؤولية عن أمن الدول الاخرى،

وهي تتميز كذلك عن سياسة الأمن الجماعي التي تعمم من حيث المبدأ مبدأ التحالف حتى تجعله عالميا بحيث تردع العدوان وتتصدى له عند الضرورة.

هنا فقط سيطول أمد الصراع وستتجاوز الأضرار والأثار السلبية للحرب الدول المتاخمة والمجاورة ليتسع نطاق الدول المتأثرة بصورة أكبر أمنيا وعسكريا واقتصاديا ومجتمعيا، ويفتح الباب على إحتمالات عديدة، مثل تفعيل الأمن الجماعي ومن ثم استخدام الفصل السابع في حالة انهيار الدولة ووصولها لمرحلة الدولة الفاشلة، ولأن نظرية الامن الجماعي تعتبر أنه من الصعوبة بمكان انتصار المعتدي أمام مجموعة الدول فانها تحتاج إلى استجابة فورية من كل الدول باعتبار أن العدوان على دولة هو عدوان على الدول جميعا، وسيتولى مجلس الأمن الدور نيابة عن الدول الأعضاء في الأمم المتحدة لإعادة الأمن والسلم، لكن سيواجه تفعيل الفصل السابع معضلة أساسية وهي أن ردع

المعتدي متوقف على اتفاق الدول الخمسة دائمة العضوية وهي الولايات المتحدة وروسيا والمملكة المتحدة وفرنسا والصين، لأن معارضة أي واحدة منها يعني تعطيل عمل المجلس وهذه المعارضة هي استخدام السلاح المضاد حق النقض (الفيتو).

ولأن الطرفان الثالث والرابع لديهما من جماعات الضغط والمصالح واللوبيات التي تمكنها بسهولة من إصدار وسن قوانين أو نصوص تسهل لكليهما الإفلات من جمود وصرامة القانون الدولي، أوتطويع نصوصه بما يتوافق مع ميولهما وأهدافهما، فإنه لا يبقى أمام الدولة التي وقع عليها الاعتداء إلا الاعتماد على إرادتها الذاتية.

وهنا أختم الحديث عن إشكالية الاحتمال الثالث وكل تلك الاحتمالات وحروب الوكالة التي تنتظم فيها الفواعل بلا هوادة في مناطق متعددة في العالم، لأضيف أن الاحتمال الأول وهو

إلحاق الهزيمة الموجعة بالطرف ب يظل فرضية صحيحة سواء كانت الحروب عادية أو بالوكالة أو امتد بها الزمن، ولا شيء يعجل بصحة ذلك الفرض إلا قوة الإيمان والإرادة فهما الضامن الوحيد لإنجاز النصر في أي حرب، وسجلات التاريخ ملأى ليس فقط بانتصارات الدولة أ المفترضة، لكن حتى الأقلية وقليلي العدة والعتاد ودارت بعدها عجلة الحياة.

إن عالم اليوم يشبه عالم الأمس لا محل فيه للضعفاء. إن مصلحة العدو الحقيقي المتربص هو أن تكون الدول المتاخمة والمحيطة في حالات حروب دائمة لا تنتهي، وضعف دائم وممتد، وأن يكون هو المتفوق والقوي الوحيد في كل المجالات العسكرية والعلمية والتقنية ،ومن أجل ذلك يستخدم اذرعته وأذنابه، وخيله ورجله.

## قراءة في قمة مجموعة العشرين 2023

أختتمت في العاصمة الهندية نيودلهي10 سبتمبر/ايلول اعمال القمة الثامنة عشر لرؤساء دول وحكومات مجموعة العشرين تحت شعار أرض واحدة، عائلة واحدة، مستقبل واحد، في واحدة من القمم التي تضم تكتلا هو الأضخم من نوعه، تمثله 19 دولة هي الولايات المتحدة وروسيا والمملكة المتحدة والأرجنتين وإيطاليا وأستراليا والبرازيل وكندا والصين وفرنسا وتركيا وألمانيا والهند وإندونيسيا واليابان وجمهورية كوريا الجنوبية والمكسيك والمملكة العربية السعودية وجنوب إفريقيا، بالإضافة إلى الاتحاد الأوروبي ممثلا العضو رقم 20.

تأتي أهمية قمة مجموعة العشرين لكونها أولا تمثل نحو 85% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، وأكثر من 75% من حجم التجارة العالمية التي قدرها مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية بـــ 32تريليون دولار، ولأنها ثانيا تمثل نحو ثلثي عدد سكان العالم، ولأن معظم الدول في النظام العالمي تعاني من تدني معدلات النمو الاقتصادي وعدم الاستقرار المالي ثالثا، لذا كان انعقاد قمة العشرين على قدر كبير من الأهمية.

تأسست مجموعة العشرين عام 1999، وكان الهدف منها مناقشة السياسات المتعلقة بتعزيز الاستقرار المالي الدولي في اعقاب سلسلة من أزمات الديون الهائلة التي انتشرت عبر الأسواق الناشئة في أواخر التسعينيات خاصة الأزمة المالية لعامي 1997-1998، والتي أظهرت ضعف النظام المالي الدولي آنذاك في ظروف عولمة العلاقات الإقتصادية، كما كشفت عن عدم اندماج

الإقتصاديات النامية بالشكل الضروري في مناقشة وإدارة الاقتصاد العالمي، وفي ذات السياق كان لعجز وعدم تمكن مجموعة السبع (G7) ونظام بريتون وودز من توفير الاستقرار المالي الدور الكبير في تفعيل المجموعة.

ومع أن مجموعة العشرين توليها الدول بقدر كبير من الإهتمام إلا أنها على مدى السنوات التي توالى فيها انعقاد القمم ؛ كانت تنحرف بها الأوضاع السياسية المتقلبة والساخنة والحروب البينية في اغلب الأحيان عن مسارها الاقتصادي الهام والدور المنوط بها في تعزيز الاستقرار المالي.

وفي وقت تدور فيه الحرب الطاحنة بين روسيا من ناحيةوالولايات المتحدة ودول الغرب المساندة والداعمة لأوكرانيا من ناحية أخرى، فقد كانت خشية وتوجس اغلب المجتمعين من طغيان الحرب الروسية الاوكرانية على أجندة القمة، خاصة أن الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" صدرت بحقه مذكرة

توقيف من المحكمة الجنائية الدولية في17مارس/اذار2023، لـــ"مسؤوليته في جرائم حرب" ارتكبت في أوكرانيا وارتكاب "جرائم ضد الإنسانية" إلا أن الاعلان التوافقي كان مفاجأة للجميع، فقد تجنب في منطوقه الانتقاد المباشر ل-روسيا بسبب الحرب الروسية الأوكرانية التي تم التنديد بها في بيان القمة الختامي عام 2022 في بالي، ولم يخف وزير الخارجية الروسية "سيرجي لافروف" ابتهاجه وسعادته بالاعلان فوصف قمة العشرين بـــ"الناجحة".

مع هذا ولأن القمة ضمت اقطابا متشاكسة ودولا تطغى الخلافات السياسية بينها، فقد كان لغياب "بوتين" والرئيس الصيني "شي جين بينغ" دلالة واضحة على حالة الوضع الدولي المتأزم من الناحية السياسية، فهو يعني ضمنيا عدم الاعتراف بالولايات المتحدة التي تساند اوكرانيا في الحرب الروسية الاوكرانية، وتشكل تهديدا للصين في بحر الصين الجنوبي ومصدرا للقلق في

المسألة التايوانية، وهي من ثم محاولة لنزع الاعتراف بها قطبا احاديا في النظام العالمي ومحاولة في ذات الوقت لتحجيم مجموعة العشرين.

من نتائج القمة في هذه اللحظات الهامة والعصيبة على النظام العالمي الذي يمتلئ بالملفات الساخنة والملتهبة، مثل قضايا تغير المناخ والصراع العربي الإسرائيلي وصفقات التطبيع، والحرب الروسية الاوكرانية وسلسلة الانقلابات المتوالية الإفريقية، كانت دعوة الاتحاد الإفريقي للانضمام لمجموعة العشرين، فقد كرر رئيس وزراء الهند "ناريندرا مودي" الذي يتولى بلده الرئاسة الحالية لمجموعة العشرين، الدعوة إلى ضم الاتحاد الإفريقي للمجموعة، لافتا خلال كلمته على هامش المنتدى التمهيدي للأعمال المنعقد في نيودلهي إلى أن انضمام الاتحاد الإفريقي للمجموعة أمر مهم "بالنظر إلى الدور المتزايد للدول الإفريقية في المجتمع الدولي"،

وبالفعل وافقت مجموعة العشرين على إنضمام الاتحاد الأفريقي، الذي يضم 55 دولة، عضوا دائما ممثلا عن دول جنوب العالم ونوهت انه سيحصل على وضع مشابه ومثيل للاتحاد الأوروبي.

إضافة لما سبق فإن قبول الاتحاد الأفريقي عضوا دائما بالمجموعة وممثلا عن دول جنوب العالم في تقديري له دلالة اقتصادية ونظرة منفعية من المجموعة بامتياز، ليس بسبب مؤشرات النمو الاقتصادي المرتفع الذي وصلت اليه القارة السمراء، بل العكس من ذلك فمعظم الدول الإفريقية تعاني التدني الاقتصادي والفوضى والتبعية لدول الغرب والاستعمار الغربي، لكن تنصب النظرة المنفعية في الموارد الطبيعية التي تمتلكها وتذخر بها القارة السمراء، فيوجد في إفريقيا احتياطي ضخم لـــ17 معدنا من أصل أكثر 50 معدنا إستراتيجيا مهما في العالم مثل الذهب والكوبالت والليثيوم واليورانيوم والألماس والبوكسيت التي

تمثل عصب الصناعات المستقبلية احتياطي البوكسيت يبلغ 30% والبلاتين 85% والكروم 80% والكوبالت 60% والألماس 75%، وهي معادن تستخدم في أشكال كثيرة من الصناعات والتقنيات، مثل صناعة الليزر والصواريخ وصناعة الأسلحة الدقيقة وعدسات التليسكوب وعناصر الهواتف الذكية، وتقنيات الطاقة المتجددة، وتشغيل مفاعلات الطاقة النووية؛ لذا فإن إفريقيا بعضويتها التي توفر وتلبي ما بين 60 - 70% من إحتياجات القوى الاقتصادية العظمى تعتبر ذات فائدة ومصلحة شديدة الأهمية.

وربطا للمصالح التي كانت من نتائج القمة فقد كان مشروع الممر الاقتصادي يبدو متسقا مع قبول إنضمام الاتحاد الإفريقي، وهو من القرارات التي تحمل في تفاصيلها معان جيو استراتيجية وسياسية هامة فهو سيعزز التبادل التجاري بين الدول، ويسهم في زيادة مرور البضائع ونقل موارد الطاقة، عبر

إنشاء السكك الحديدية والموانئ ويتيح حركة اسهل للتجارة والطاقة والبيانات من الهند عبر الشرق الأوسط وصولا إلى أوروبا، ومن وجهة نظر "بايدن" فإن إنشاء خطوط السكك الحديدية، وربط الموانئ البحرية سيؤدي لتعزيز التبادل التجاري، وتسهيل مرور البضائع، ودعم جهود تطوير الطاقة النظيفة وأنه سيكون "لاستثمارات أبعد" باعتبار أن البنية التحتية المعززة ستدفع النمو الاقتصادي، وتساعد على التقريب بين الدول في الشرق الأوسط وتقديم تلك المنطقة كمركز للنشاط الاقتصادي بدلا من مصدر للتحديات والصراع أو الأزمات.

مع ذلك يمكن القول أن مشروع الممر الاقتصادي الذي سيربط الهند بأوروبا عبر الشرق الأوسط، هو نموذج يشابه مشروع الحزام والطريق الذي قدمته الصين لتبادل المصالح الاقتصادية بين كل الدول، وفي تقديري لا يخرج مشروع الممر الاقتصادي الذي تم

الاتفاق عليه سوى أنه محاولة ومناورة سياسية لإفشال المشروع الاقتصادي الصيني، وفي ذات الوقت محاولة لمنافسة وتفريغ مجموعة بريكس الاقتصادية، التي بلغت مساهمتها في الإقتصاد العالمي إلى 31.5% والتي تعمل لذات الأهداف.

من ناحية ثانية فإنه سيخدم إسرائيل باعتباره خدمة مجانية تقدمها مجموعة العشرين، وسيكون ذلك في مصلحة اسرائيل ليس لأنه سيفتح لها اسواقا جديدة في آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا، بما يقوي ويزيد النمو الاقتصادي الإسرائيلي، لكن سيكون عاملا من عوامل التطبيع بينها والدول العربية وهو ما تسعى له الإدارات المتعاقبة واللوبيات في الولايات المتحدة.

ختاما يمكن القول مع إختلاف المشاريع والمسميات والمجموعات الاقتصادية والنظريات، إلا أنها في مجملها لا تخرج من كونها مناورات سياسية بين مختلف الفاعلين لجذب واستقطاب الدول كل لطرفه على

أساس المصلحة والمنفعة، ويتم في ذلك الاستقطاب التعامل بالمفردات الاقتصادية والمجموعات الاقتصادية.

## الطابور الخامس: الأسباب والدور والأثر

من العوامل المربكة والمزعجة والتي تثير نوعا من الاضطراب والقلق لدى أي دولة في حالة حرب مع دولة أخرى، أو قوات نظامية تقاتل قوات أخرى متمردة كما هو في الحالة السودانية التي تقاتل فيها القوات النظامية الحكومية قوات الدعم السريع المتمردة، هي وجود وظهور الطابور الخامس.

الطابور الخامس أو الرتل الخامس (بالإنجليزية: Fifth column) مصطلح متداول في أدبيات العلوم السياسية والاجتماعية، نشأ أثناء الحرب الأهلية الأسبانية التي نشبت عام 1936 واستمرت

ثلاث سنوات، وأول من أطلق هذا التعبير هو الجنرال "إميليو مولا" أحد قادة القوات الوطنية الزاحفة على مدريد، وكانت تتكون من أربعة طوابير من الثوار، فقال حينها إن هناك طابورا خامسا يعمل مع الوطنيين لجيش الجنرال فرانكو ضد الحكومة الجمهورية التي كانت ذات ميول ماركسية يسارية من داخل مدريد، ويقصد به مؤيدي فرانكو من الشعب، وبعدها ترسخ هذا المعنى في الاعتماد على الجواسيس في الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي.[1]

وبحسب المؤرخ الإنجليزي "هيو توماس"، أثناء مؤتمر صحفي مع صحفيين أجانب، سئل اللواء أي الطوابير الأربعة التي يتكون منها جيشه سيفتح مدريد؛ عندئذ رد اللواء" مولا" قائلا أن هذه ستكون مهمة الطابور الخامس ( quinta columna)، في إشارة ضمنية إلى الجماعات الفرانكية الموالية للملكية

التي كانت تعمل في الخفاء داخل مدريد. [2]

ظهور الطابور الخامس في أرض المعركة مثير للقلق ليس بسبب أنه فرضية غير متوقعة أو محتملة الحدوث، لكن لصعوبة التنبؤ بأفراد الطابور الخامس أو عملياته المتوقعة، كما أنه يدخل في عداد الطابور وقتيا وفي حالة إندلاع الحرب عناصر لا ترقى للشبهات على الإطلاق، وفي حالات عسيرة يكون الطابور الخامس أو الخلايا النائمة ليسوا أفردا من داخل الدولة يمكن التعامل معهم ورصد تحركاتهم ونواياهم، لكن يكون بحجم دولة أخرى تزيد من أوار الحرب المشتعلة بالوكالة، فتدعم قوات الطرف الآخر بالمال والأسلحة والذخائر وكافة انواع الدعم اللوجستي، وربما بأفراد من عتاة المرتزقة الذين يقاتلون في الحروب أشد القتال وباحتراف، ليس من أجل النصر والحاق الهزيمة النكراء بالطرف الآخر لكن من أجل دراهم تسيل اللعاب هم في أمس الحاجة إليها.

الوضع الطبيعي أن مواطني الدولة، هم الذين يكونون جيشها، وهم الذين يدافعون عن بلادهم وأرضهم، لأن الدفاع عن الوطن هو دفاع عن أمنه وأمانه ومصالحه العليا، مما يقتضي أن يكون المدافع عنه ممن يدين بالولاء له، ولا يتحقق ذلك إلا بالنسبة لمواطنيه، إلا أنه قد يحدث أن يشارك بعض الأفراد في الدفاع عن دولة أخرى برغبة من دولتهم، أو يكون بإيمان هؤلاء الأفراد بعدالة القضية التي يدافعون عنها، أو حتى قد يكون هؤلاء الأفراد من ممتهني القتال طالبين النفع المادي ودفع المال ولا يهتمون لمشروعية أو عدم مشروعية الحرب، مادام سيدفع لهم ثمن خدماتهم فهم يبيعون مبادئهم وأخلاقهم لمن يدفع لهم. [3]

ربما تكون السيطرة على الطابور الخامس والمرتزقة والخلايا النائمة أسهل في حالة الأفراد، إلا ان الأمر الفادح والأعظم هو أن يكون دولة أخرى؛ لها مصالح ومنافع

داخل الدولة مثل السيطرة على المواقع الإستراتيجية مثل الموانئ البحرية التي تتيح لها اكبر قدر من التحكم في المنطقة، والموارد الطبيعية التي توجد في باطن الأرض بكميات ضخمة مثل الذهب والنفط.

الخلايا النائمة تكون في الغالب منخرطة في اعمالها الحياتية بصورة لا تدعو إلى الريبة، وفي لحظة ما يتم ايقاظها لاداء مهام لمصلحة جهة ما تربطها معها روابط مادية أو اثنية أو جهوية أو فكرية وربما عاطفية، وما إلى ذلك من الروابط الكثيرة التي تستمال بها الخلايا النائمة. والخلايا النائمة هي تكوين إستخباري في الأساس ولا يختبر الا في حدود عمل عسكري أو عمل معاد يستوجب ظهورهم النادر، وهذا مما يجعل مهمة كشفهم عسيرة نوعا ما، وحتى اذا تم القبض عليها «وهي نائمة» فقد لا تدان على نواياها طالما أنها لم تتحرك لفعل شيء بعد. ان الخلايا تحافظ على مسماها طالما التزمت جانب السكون

والاختباء، وعندما تتحرك يتم تنشيطها في اجواء معينة فانها تكون اقرب إلى الطابور الخامس منه إلى الخلايا .[4]

ان امكانية كشف الخلايا النائمة يتوقف على مدى سرية عملها وطبيعة تشكيلاتها، ففي أحيان كثيرة يكون التنظيم بالغ الدقة في شكل مجموعات لها مهام محددة ولا تدري عن بعضها شيئا، وهو الاخطر على الأجهزة الأمنية لانه في هذه الحالة لن تتمكن من كشف سوى مجموعة واحدة أو اثنتين على الاكثر، وتبقى بقية الخلايا الاخرى نائمة حتى يتم ايقاظها مع عملية جديدة وربما تنام إلى الابد ولا يتم كشفها مطلقا .[5]

صحيح أن الطابور الخامس أو الخلايا النائمة لا تنشط ولا تكون بفعالية كاملة ويقظة إلا في اوقات الحرب والاضطرابات التي تعتري الدولة، إلا أنه في تقديري إذا كانت هناك متابعة دقيقة ورصد لهذه العناصر فإنه من السهولة تفادي إن لم يكن التقليل من اخطارها والضرر الذي قد ينجم منها، وفي تقديري أيضا إذا

كانت هناك مؤسسات في الدولة تتابع حركة الأفراد والعناصر التي من الممكن أن تتحول وتنشط إلى طابور خامس، فإنه من الميسور حينئذ ان يتم استقطابها وتحويلها من ثم إلى خلايا وعناصر نافعة لا يتوقع منها ضرر ولا ضرار.

مهما يكن من أمر، فان هزيمة القوات التي تساندها الخلايا النائمة من الداخل، يجعل الاخيرة أبعد ما تكون عن المشاركة في عمل عسكري آخر، حيث تحتاج إلى وقت طويل لتأهيلها مجددا «نفسيا وعسكريا»، كما تدفعهم إلى المغادرة على وجه السرعة خشية ان يرشد عليهم من قبل زملائهم المقبوضين لدى الاجهزة الامنية، ولما كان في الحالتين إحتمال إقدامهم على عمليات تخريبية يائسة غير مستبعد، فإن ذلك يقتضي «يقظة» الاجهزة المختلفة وان «نامت» الخلايا. [6]

الأسباب التي تقود إلى الطابور الخامس والخيانة:

مع ذلك فإن الأجهزة الأمنية والمؤسسات لا يتم عملها بصورة جيدة وفعالة، إلا بدراسة الأسباب التي من الممكن ان تكون عاملا لتحريك الأفراد إلى جواسيس أو خلايا نائمة أو خونة أو عملاء، أو طابور خامس أو مثبطين أو مرجفين، وكلها وان اختلفت مسمياتها تكاد تقترب من معنى واحد وهو عدم الإنتماء للدولة نتيجة الشعور بالظلم الفادح.

ربما يكون من الأنسب معالجة هذه الأسباب المتعددة التي تؤدي إلى صنع قنابل بشرية موقوتة إن صح التعبير وذلك في عدة خطوات:

أولا: معالجة الشعور بالظلم والتهميش والإقصاء والإضطهاد الناجم من عدم العدالة في إقتسام وتوزيع الثروات بين المركز والاطراف بشكل عادل، وهذه المعالجة تتطلب توفر النزاهةوالشفافية، وعدم إستغلال السلطة في حرمان طرف من الاطراف من حقوقه الكاملة لدوافع شخصية

أو إثنية أو عرقية، أو ايدلوجية أو سياسية. ان مبدأ المساواة والعدل كفيل بلجم أي نوازع عدوانية وتثبيط أي شعور بالظلم والاضطهاد، ليس هذا وحسب بل من شأنه من ناحية ثانية أن يفجر الطاقات والجهد لدى الأفراد للرفعة والتقدم والنماء، وهذه وحدها ايجابيات عامة لمصلحة الجميع وتطغى على أي منافع ومصالح شخصية مكتسبة في حالة الظلم ومجافاة العدل.

ثانيا: معالجة الشعور بالظلم الناجم من عدم العدالة في تولي المناصب ومؤسسات الدولة، وهو ما يتتطلب أيضا العدالة والنزاهة، وتقديم المؤهلات والكفاءات على أي اعتبارات شخصية أو حزبية أو سياسية.

ثالثا: التداول السلمي للسلطة عبر انتخابات نزيهة، لأن التفرد بالحكم والاستبداد والطغيان كفيل بتحريك مشاعر الغضب والغليان وعدم الانتماء للدولة، بل من شأنه أن يقدم

الأفراد أنفسهم رهينة، لأي جهات خارجية أو داخلية تقدم لهم وعودا بالعدل والحرية والمساواة.

رابعا: معالجة التدهور الاقتصادي في الدولة ورفع المستوى المعيشي، لأن التدهور الاقتصادي والفقر وعدم مقدرة أو رغبة الدولة على المعالجة الاقتصادية والمعيشية، من شأنه أن يضع الأفراد في موازنات ومقارنات تقود في آخر الامر إلى إنحراف البعض إلى أي جهات نظير دراهم معدودة.

خامسا: زيادة درجات الوعي الوطني والإنتماء للبلاد من خلال أنشطة ثقافية تربوية، يقود إلى غرس طبائع المحبة والفداء.

دور الطابور الخامس:

مع أن الطابور الخامس لا ينشط إلا أوقات الحروب والاضطرابات، فإن الدور الذي يقوم به قد يكون من أخطر الأدوار بل ممكنا أن يكون أخطر أثرا من القوات التي يساندها ويدعمها

دعما مباشرا، من ضمن هذه الادوار الدور الارشادي والتخريبي والدعائي.

ففي الدور الإرشادي تقوم هذه العناصر بإعطاء وتقديم صورة مكشوفة لأرض المعركة، بما يتضمن كشف المواقع الإستراتيجية والعسكرية وتحديد مواقع الأهداف وكافة مفاصل الدولة، وهو ما يجعل مهمة قوات الطرف الآخر ساهلة وميسورة تماما، وأمام خريطة مفتوحة أمامهم لتحديد الخطط الهجومية اللازمة وابتداء وانتهاء العمليات.

وفي الدور التخريبي فإن هذه العناصر تعمل باعتبارها جيشا موازيا، وتقوم بأعمال تخريبية من شأنها تجعل من مهمة الطرف الذي تواليه مهمة سهلة بقدر كبير.

وفي الدور الدعائي أو الحرب النفسية تقوم العناصر باطلاق الشائعات المغرضة التي من شأنها تثبيط الهمم والعزائم.

يمكن القول أن الحرب النفسية هي عملية شاملة ترافق المخطط المعادي في أوقات السلم أو الحرب، وذلك للتأثير في الخصم وتهديم قناعاته أو تشكيكه فيها وإحلال أخرى في مكانها تتماشى مع مصالح الطرف الذي يشن الحملة.[7]

لقد كان إطلاق المنافقين في معركة أحد شائعة ان النبي صلى الله عليه وسلم مات أثرا كبيرا على نفسيات جيش الإسلام والصحابة، إلا أنه سرعان ما تم نفيها وهدأت النفوس لمواجهة قوى الشرك والظلام، لذا فإن إطلاق المنافقين والمرجفين والطابور للشائعات هو عمل إعلامي محض الغرض منه خلط الحقائق وتقديم صورة منافية وزائفة تماما للواقع؛ القصد منها تثبيط عزيمة الطرف الآخر والعمل على اهتزاز نفسيته بأن يدب الخوف والرعب فيها بدلا من الشجاعة والإقدام، وأن يكون الطرف الآخر أيضا فاقدا للثقة مترددا يائسا محبطا، لا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهي، إلا أن هذه النتائج المروعة تتطلب مقدرات

هائلة في الدعاية الإعلامية التي قوامها مؤهلات كبيرة في الكذب والتحريف وتزييف الحقائق وطمسها .

آثار إنحراف الأفراد للطابور الخامس والعمالة :

من المؤكد أن أول أثار الطابور الخامس والعمالة هو تأخير النصر للدولة في حالات الحروب، وربما يكونوا أيضا سببا من أسباب الهزيمة المبكرة، ليس من حجم هذه العناصر وعددها وحسب لكن بما تقدمه من فوائد ومعلومات حساسة للطرف الآخر، وفي هذه الحالة تكون أخبارهم صادقة تماما مائة بالمائة لأنها من ذات الدولة وهم أدرى بشعابها وفجاجها ، كأن تكون هذه المعلومات مناطق استراتيجية أو عسكرية لم تؤمن تأمينا كاملا وبها ثغرات يمكن أن تؤتى منها ، وهذه من أكبر الأدوار التي يقدمونها وهي أيضا من أعظم المخاطر التي ربما تؤتى منها الدولة وتؤخذ على حين غرة، ليس بسبب سقوط هذه المواقع الإستراتيجية

وحسب لكن بالمردود المعنوي والنفسي الذي سيلحق بالدولة وجيشها النظامي فيما يشبه نصف الهزيمة.

ولأن العميل أو الطابور يمتلئ بالشعور بالظلم والغبن، ليس مستبعدا أن يرشد إلى شخصيات هامة في الدولة أو افرادا من عوائلهم فيما يشبه الإنتقام الذي ينتظر فيه سانحة للنيل منهم خاصة إذا تعرضوا للظلم والبطش سنين عددا.

وفي أسواء الفرضيات والإحتمالات قد يقوم العملاء أو الطابور بعمليات تخريبية فيما يشبه سياسة الأرض المحروقة، حتى يتعذر على قوات الدولة التحرك بسهولة في مناطق تم تخريب البنية التحتية والاتصالات بها.

مع هذا في كل الأحوال لا يكتب لأدوار الاستبداد والطغيان من النخب الحاكمة بالخلود والبقاء، كما لا يكتب لهذه الشخصيات غير السوية الاستمرار في أدوار الخيانة والإرتزاق والجاسوسية، لأنها تخالف الفطرة السوية السليمة

مهما أوتيت من مهارات ومقدرات غير اعتيادية مثل "ريتا ايليوت".

ريتا ايليوت - Rita Elliott: هي من إحدى الجواسيس التي عينها السوفيات في اوستراليا واسمها الحقيقي "غريغوريفنا". حيث تم ادخال ايليوت لتلقي التدريب في معهد غازينا للتجسس في العام 1945، وقد نص أحد تقارير نجاحها الذي أرسل إلى مقر قيادة دائرة الاستخبارات في موسكو على الآتي: لدى هذه الطالبة مقدرات غير اعتيادية ليس بالنسبة إلى ما يتعلق باللغة فحسب ولكن في حقول أخرى من الدراسة المتفهمة أيضا. فقد خلقت لتكون عميلة وسوف تتعدى أعلى تقديراتنا في نطاق مهنتها في المستقبل...."فقد امتلكت في فترة لا تتعدى الأربعة عشر شهرا القدرة على التكلم والتصرف وكأنها ولدت في أوستراليا. وقد انتقلت إلى ملبورن وبدأت بنشاطها التجسسي وارسال الوثائق والتقارير السرية إلى دائرة الاستخبارات السوفياتية. وقد كانت

تستخدم أسلوب التنويم المغناطيسي لتحقيق غاياتها في التجسس، حيث كانت تستدعي الرجال وتمزج لهم مخدر في المشروب ومن ثم تستطيع بعد ذلك تنويمهم مغناطيسيا موحية لهم بأنهم يقومون بأداء تقارير إلى رؤسائهم، فتستجوبهم بخبرة بحيث يتكلمون بحرية. إلا أن مكافحة الجاسوسية الاسترالية تنبهت إلى أنها من الممكن أن تكون جاسوسة فوضعتها تحت الرقابة إلا أنها لم تثبت عليها شيء. فاستكملت عملها ضمن العمل الفني التي كانت بارعة فيه وهو أعمال السيرك ومن بعدها استدعتها موسكو كونها لا تستطيع القيام بعد في أعمال تجسس. [8]

**المصادر:**

[1]_انظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا ، الطابور الخامس، (تاريخ الدخول: 15 سبتمبر /ايلول 2023): https://tinyurl.com/4hxb8xnu

[2]_المصدر السابق

[3]_منال جرود ، أسرى الحرب، موقع الموسوعة السياسية ، 10يونيو /حزيران2023، (تاريخ الدخول: 15 سبتمبر /ايلول 2023): https://tinyurl.com/5yzmtmec

[4]_فتح الرحمن شبارقة ، الخلايا النائمة في الخرطوم بين اليقظة والاحلام ، موقع سودارس،25 مايو /ايار 2008، (تاريخ الدخول: 15 سبتمبر /ايلول 2023):

https://www.sudaress.com/rayaam/12423

[5]_المصدر السابق

[6]_المصدر السابق

[7]_صالح عوض، التصدي.. طابور خامس.. مهمات لتخريب أرواحنا، موقع صحيفة رأي اليوم، 25اكتوبر /تشرين الأول 2020، (تاريخ الدخول: 15 سبتمبر /ايلول 2023):
https://tinyurl.com/3wtm6bmv

[8]_الهام ناصر، التجسس، موقع الموسوعة السياسية، 9مارس /آذار 2022، (تاريخ الدخول: 15 سبتمبر /ايلول 2023):
https://tinyurl.com/ye2336n5

## سردية التخريب وسياسة الأرض المحروقة في المسألة السودانية

تعتبر الأفعال التخريبية المتعمدة التي تقوم بها فئة من الناس هي ترجمة وتعبير لحقيقة الرفض وعدم القناعة بالوضع الراهن، ولم يكن في تصور تلك الفئة طريقة أخرى للتعبير عن الرفض إلا هذه الوسيلة باعتبارها منفذا لتفريغ الغضب والغليان الذي يعتمل في صدورهم رغم ما يعتري هذه الوسيلة من قصور وعدم إدراك ووعي ومنطق. وباعتبارها أيضا وسيلة من وسائل الردع الاستباقي في حالة إمتلاك الطرف المخرب قدرا كبيرا من القوة تمكنه المبادرة في الحروب وكسبها بنسبة كبيرة.

في الأيام القليلة الماضية، قامت قوات الدعم السريع المتمردة في السودان بأعمال تخريب واسعة شملت قصف البنايات والابراج والوزارات وابراج الاتصالات بالقذائف، مما أدى لتدميرها واشتعال النيران فيها بعد فشل محاولتهم السيطرة على مبنى القيادة العامة في الخرطوم. أول سبب يتبادر إلى الذهن هو الهزيمة، وبالتالي فإن الأعمال التخريبية الناجمة من ذلك هي تعبير عن رفض الفشل والإنهزام، لذا فقد تواصلت أعمالهم التخريبية فيما يشبه الانتقام.

وفي تقديري هذا الفعل له دلالة على فقدان الاتزان والتماسك، وفقدان هذه الفئة للسيطرة التامة على نسيجها، لذا من غير المستبعد في حالات الانهزام أن نشهد مناظر تخريبية واسعة وقصفا عشوائيا بالسلاح، يترافق مع تقهقر القوات المنهزمة في أي رقعة تدور فيها الحروب، إلا أن هذا الفعل من جهة ثانية يعني نجاح الطرف الآخر

تماما في التمكن من خلخلة نسيج الطرف المخرب وإفقاده أهم عنصرين لدى أي جيش وهما الاتزان أو التماسك والإرادة، وبفقدان هذين العاملين فإن بوادر الإنهزام والأفول تحكم الخناق عليه.

ولأن التخريب يمثل إنهزاما نفسيا ومعنويا أو رغبات انتقامية لا تطال الطرف الآخر مباشرة، لكن يتم تفريغ هذه الشحنات على المنشاءات الحيوية والمرافق الاقتصادية وكل ما تطول ايديهم، فإنه يكون قريب الشبه لسياسات الأرض المحروقة التي تطبق أيضا في الحروب بنفس القدر وربما أكثر، والتي يكون المدنيين والأبرياء هم أول المكتوين بنارها قبل الأعداء.

سياسة الأرض المحروقة يلجأ إليها أحد الطرفين باعتبارها خطة عسكرية استراتيجية محكمة للتمكن من الطرف الآخر والنيل منه، وفيها يتم إحراق وتدمير المرافق الحيوية وحرق أو اتلاف المحاصيل الزراعية والمواد الغذائية، وتدمير البنية التحتية والاتصالات بما

يعيق تقدم القوات المعادية وارهاقها لحين ساعة الصفر.

في الحرب العالمية الثانية كانت سياسة الأرض المحروقة من حيث الأهداف المتوخاة ملائمة تماما ل-"ستالين" عندما أحكمت عليه المانيا النازية الحصار والخناق، ورغم ان "ستالين" كان يعلم سابقا بتحركات الجيش الالماني ونيته المبيته على غزو الاتحاد السوفياتي بحسب معلومات الاجهزة الاستخبارية، إلا أنه تجاهل ذلك لوجود تضارب في المعلومات المقدمة إليه ونتيجة لذلك فقد سقطت اعداد كبيرة من فيالق الجنود السوفيات في أيدي الالمان وقتذاك.

ومع النجاح الملحوظ في تقدم الجيش الألماني في العمق السوفياتي إلا أن العملية التي قرر "هتلر" الانتهاء فيها من السوفيات (نصف الآدميين) ! قبل حلول الشتاء لم تنتهي كما كان يتوقع، فقد كان لتأخر وصول الإمدادات للتوغل الكبير الذي سلكه الجيش الألماني داخل

الأراضي السوفياتية سببا في تجميد الهجمات الألمانية وتأخيرها ، وكانت هذه فرصة ملائمة للسوفيات للبدء بتنفيذ سياسة الأرض المحروقة .

وبالفعل قامت القوات السوفياتية بحرق المحاصيل وتدمير المرافق العامة والخدماتية ، ومنع المؤن والغذاء وحرق المحاصيل الزراعية وقتل المواشي، مما أدى لنتائج سيئة واضرار كبيرة على جيش " هتلر " فأصيب الآلاف بالحمى ونزلات البرد من موجات الشتاء القارس، وعانت القوات النازية من النقص في العتاد العسكري والوقود والغذاء، فضلا عن الهجمات المرتدة من الجيش السوفياتي الذي سيطر آخر الامر على برلين في مايو 1945 .

وفي ذات السردية فقد كانت إسرائيل البربرية هي أول من استخدم هذه السياسة في الداخل الفلسطيني والمحيط العربي والاسلامي، بتوجيه الضربات الاستباقية الإستراتيجية والتدمير المنهجي للمدن، وتدمير البنية التحتية والاستيلاء على الأراضي عنوة،

وتطبيق نظام الفصل العنصري كما استخدمت الأسلحة المحرمة دوليا ، ولجأت لتصفية القادة والعلماء وحرق المزارع والمحاصيل الزراعية ، وحصار قطاع غزة والمخيمات، وتجريف الأراضي الزراعية ومنع دخول المواد التموينية والمساعدات الطبية .

وخارجيا لاحقت علماء المسلمين بالاغتيالات والتصفية الجسدية ، وخربت المفاعلات الايرانية في نطنز ودمرت مفاعل تموز العراقي وغيرها من العمليات العسكرية الخارجية ، وهي في الجملة داخليا وخارجيا محاولات من اليمين الإسرائيلي المتطرف للتطويع والتطبيع في ذات الوقت !

مع هذا فإن الأعمال التخريبية أو الانتقامية التي ترافق الحروب، ويكون المدنيين والابرياء هم أول ضحاياها تفضي بنا إلى استخلاص مجموعة من الملاحظات يمكن عرضها على النحو التالي:

أولا: الأسباب السياسية : وهي في مقدمة الأسباب التي تجبر العناصر على

الدخول في الأعمال التخريبية أو الانتقامية، وفي اسواء الفروض تصل الى مراحل كارثية مثل التصفية الجسدية والتطهير العرقي والديموغرافي، وحتى لا تصل الدولة إلى مثل هذه النماذج الكارثية على نحو ما جرى في ميانمار مثلا فإنه من المفيد بمكان حلحلة أي نزاع سياسي مع الأطراف الأخرى بالطرق السلمية، أو أن تنجرف الدولة في سلسلة من عمليات الإرهاب والتخريب والعنف السياسي المتبادل مثلما هو منظور في المنطقة.

مع ذلك فإن تفكيك عوامل الاحتقان والتوتر بين مختلف الفصائل والجهات والمجموعات التي تتعارض فكريا وسياسيا، هو وحده الضامن لتلافي أي اعمال تخريبية من الممكن أن تكون رد فعل، وهذا لا يتم في تقديري إلا بالحوار والاتفاق على المرجعيات الثابتة وتقديم التنازلات، والنظر إلى المصلحة العليا دون المصلحة الشخصية الآنية.

ثانيا: الأسباب الاستيطانية: التخريب الاستباقي الغرض منه إظهار القوة بقصد اطالة عمر الاحتلال، لذا فإن من مصلحة الدولة الاستيطانية هو أن تكون كل الدول المحيطة في حالة ضعف دائم، أو حروب بينية مستمرة يتم فيها إنهاك كل الأطراف، فضلا عن تغذية ودعم كل الاطراف بالأسلحة المتطورة عن طريق دولة الاحتلال أو أذنابها في المنطقة.

ثالثا: الأسباب الاستعمارية: قديما كانت دول الغرب المستعمرة تعمد إلى سياسة الأرض المحروقة بقصد تمكين الاستعمار على نحو ما جرى في الجزائر مثلا. فقد كان الاحتلال الفرنسي يسعى إلى التوسع في الاراضي الجزائرية وتحقيق سياسته الاستيطانية، وارغام السكان للخضوع للصف الفرنسي بعد حملات الابادة المتكررة على الشعب الجزائري وتجويعه لابعاده عن المقاومة، وسلب أراضيه وحرق محاصيلهم الزراعية وحرق الاشجار المثمرة، وقطع اشجار الزيتون ونهب ممتلكاتهم لولا تصدي الأمير

"عبد القادر" الجزائري للاستعمار وبثه روح التحدي والمقاومة.

ولأن الاستعمار باق اليوم في ثوب جديد، فقد كانت آثاره التخريبية تختلف عن ما مضى مثل التخريب الفكري الاستعماري الذي يتمثل في المذاهب والنظريات الهدامة التي تستهدف المكون والإرث العقائدي للأمة.

رابعا: الأسباب العرقية: إن عدم تقبل الآخر لدوافع وأسباب عرقية هو عامل أساسي في التخريب الذي يطول البنية التحتية والمنشاءات السكنية، ففي ميانمار كانت عقيدة الجيش هي إخفاء وجود أقلية الروهينغا المسلمة السنية إخفاء ابديا وعلى أسس ومحركات عقائدية بوذية، لذا فقد جنح النظام الميانماري لتوظيف الإرادة العقائدية البوذية على النحو الذي تصبح فيه هذه الإرادة هي القائد الفعلي الذي يأمر ببدء العمليات العسكرية لسحق الروهينغا وتصفيتهم، وتخريب ممتلكاتهم ومرافقهم الحيوية. وفي

الوقت الذي دعا فيه مفوض حقوق الإنسان إلى اتخاذ إجراءات عاجلة لإنهاء الأزمة لأن قيادات وجنرالات الجيش شرعت في سياسة الأرض المحروقة في محاولة للقضاء على المعارضة بعد عامين على الانقلاب العسكري، ذكرت تقارير تقارير الأمم المتحدة إلى أن ما يقرب من 39 ألف منزل في جميع أنحاء البلاد تم حرقها أو تدميرها في العمليات العسكرية منذ شباط/فبراير 2022، وهو ما يمثل زيادة بأكثر من 1000 ضعف مقارنة بـــ 2021

خامسا : الاسباب الاقتصادية : يعد الفساد المالي والإداري والتدهور الاقتصادي، والفقر المدقع وانخفاض دخول الأفراد وتدني المستوى المعيشي ، والتوزيع غير العادل للثروات وإهمال الهامش في التنمية الاقتصادية والمرافق الصحية والمؤسسات التعليمية والخدماتية مقارنة مع المركز، والتفاوت الطبقي والاجتماعي، يعد سببا رئيسا في تكون الشعور بالظلم

والدونية ومن ثم تولد رغبات ونوازع الشر والتخريب.

ولأن المخربون هم عناصر يفتقدون القدرة على التماسك والاتزان والتمييز، وتسيطر عليهم نوازع الغضب والشعور بالانهزام، فإنه لا توجد لديهم في هذه الحالة بنكا ثابتا للاهداف المراد تخريبها، لكن تعتبر كل ما تصله ايديهم ومنافعهم هي أهدافا مشروعة للتخريب، مما يجعل السيطرة عليهم أمرا يتطلب قدرا عاليا من الحكمة والحذر، وفي الوقت ذاته للتقليل من الكلفة الاقتصادية العالية التي تخلفها هذه الأعمال.

سادسا: الأسباب العسكرية: مالم تكن الأعمال التخريبية هي مقدمة لخطط عسكرية في خريطة الأهداف، فإن الأعمال التخريبية للمنشاءات والبنية التحتية تعتبر محصلة للانهزام العسكري في حالة الحروب وتعبير نفسي عن رفض الهزيمة. وهنا فإن الطرف الآخر ربما يلجأ لفرضية

الحرب السريعة، التي هي من أكثر الطرق فعالية ضد سياسة الأرض المحروقة أو أي أعمال تخريبية، بقصد التقليل من حجم الضرر.

## جرائم ضد الإنسانية هنا وهناك: حان الوقت لنظام عالمي جديد

بعد قيام الدولة القومية في أوروبا منتصف القرن السابع عشر، بعد حروب دامية استمرت ثلاثين عاما كانت الحاجة ملحة لمفهوم يعمل على تقليل الحروب التي كانت تندلع لأقل الأسباب، ونتيجة لذلك اتجهت الدول لنظام توازن القوى، من أجل تحقيق سيادة الدولة وحماية حدودها، إلا أنه أثبت فشلا كاملا في القضاء على الحروب ومنع إندلاعها، لأن مفهوم توازن القوى جعل الساحة الدولية تدخل في تحالفات وإرتفاع غير مسبوق في سباق التسلح.ولأن سباق التسلح زاد بدوره من الشعور بالخوف وإنعدام الثقة بين الدول، بل أن الدولة التي تهتم

بتطوير اسلحتها وتعظيمها أكثر من غيرها اوجد فيها شعورا يقودها إلى الميل التلقائي لاستعراض هذه القوة العسكرية مما كان يؤدي تلقائيا إلى إحماء الصراع وإشتعال الحروب، لذا فقد كانت الحاجة ملحة أكثر مما مضى إلى مفهوم جديد لتحقيق السلام وخفض وتيرة الحروب.

ولأن مبدأ توازن القوى أثبت عجزا في إرساء السلام المنشود وتحقيق الأمن والسلم الدوليين، فقد كان مفهوم نظام الأمن الجماعي الذي كان يعتمد نظام المؤسسات في طبيعة عمله وتشغيله أقرب الحلول الناجعة لوضع حد لحالة الحروب والفوضى في النظام العالمي.

غير أنه ثبت لاحقا أن نظام الأمن الجماعي عجز عن تحقيق الأمن والسلم الدوليين ليس بسبب عدم صلاحيته وجدواه، لكن لوجود معارضة أو رفض داخل بنيته المؤسسية، تتمثل في حق النقض الذي اقتصرت ملكيته للدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن، وكان من السهل

ووفقا لمصالحها ومنافعها أن يكون حق النقض سلاحا ماضيا وفعالا أمام أي محاولات من الدول الأخرى لعرقلة أو تأخير أو الحيلولة دون تلك المصالح.

من تلك المصالح الأخيرة في ظروف الحرب الدائرة في أوكرانيا في هذا الوقت، هي رغبة الولايات المتحدة باعتبارها قطبا آحاديا في النظام العالمي، تطبيق مواد القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة في إدانة روسيا، وهو ما يعني محاولة الحفاظ على كيانها آحادي القطبية دون منافس حقيقي لها، ومن ناحية ثانية فرصة متاحة أكثر من غيرها لتجريم خصمها الرئيس وإدانته بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية في أوكرانيا.

لذا فقد كانت تغريدة "بلينكن" على تويتر 21 سبتمبر/ايلول 2023 التي ترافقت مع انعقاد اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة متجانسة تماما مع تلك الدوافع والمصالح، فقد قال: إن الغزو الروسي في حد ذاته ينتهك

الركيزة الاساسية لميثاق الأمم المتحدة ألا وهي احترام سيادة جميع الدول ووحدة أراضيها. موسكو ترتكب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية في أوكرانيا بشكل شبه يومي وتواصل تهديداتها النووية المتهورة.

وفي ذات السياق طلب الرئيس الأوكراني " فولوديمير زيلينسكي" من الأمم المتحدة تجريد روسيا من حق النقض في مجلس الأمن، معتبرا إنه إصلاح جوهري في الأمم المتحدة، ومن المستحيل إنهاء الحرب لأن كل الجهود يعترضها المعتدي أو أولئك الذين يتغاضون عن المعتدي.

تبدو تلك المواقف من "بلينكن" و "زيلينسكي" وآراءهما في إصلاح الأمم المتحدة بتجريد روسيا من تمتعها ب- حق النقض الذي تستخدمه في مصالحها الخاصة وفق المتغيرات السياسية الدولية من ناحية، واطلاق الحبل على الغارب_ إن صح هذا التعبير_ للولايات المتحدة من ناحية ثانية في تجريم وتصنيف "بوتين" مجرم حرب مرتكبا

لجرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية، متسقة تماما بل متطابقة بين الولايات المتحدة وأوكرانيا، وتبدو أيضا لكل ذي عينين أن المحصلة النهائية من هذه التراشقات الكلامية، ليس الرغبة الحقيقية في إصلاح مجلس الأمن والأمم المتحدة، لكن استمرار الولايات المتحدة قطبا أحاديا في وقت تقترب فيه كل من الصين وروسيا لفرض التعددية القطبية الجديدة.

ومن الواضح تماما أيضا أن الولايات المتحدة تتمتع بمقدرة على التعامل بانتقائية ومعايير مزدوجة وتقديم الأوراق المناسبة متى تطلبت المصلحة، وتحريك أفراد أو رؤساء أو جماعات أو مؤسسات في تقديم تلك الاوراق، لذا فقد اصدرت المحكمة الجنائية الدولية 17مارس 2023، باعتبارها مؤسسة عدلية كونية مذكرة توقيف بحق الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" لـــ"مسؤوليته في جرائم حرب" ارتكبت في أوكرانيا، وانتهت المحكمة في بيانها إلى إن

"بوتين" متهم بأنه مسؤول عن جريمة الحرب المتمثلة في الترحيل غير القانوني للأطفال، والمدنيين من المناطق المحتلة في أوكرانيا إلى الاتحاد الروسي، واستندت المحكمة في حيثياتها إلى تحقيق فريق تابع للأمم المتحدة، جاء فيه أن نقل أطفال أوكرانيين إلى المناطق الخاضعة لسيطرة موسكو في أوكرانيا وإلى روسيا، يشكل "جريمة حرب"، مشيرا أيضا إلى احتمال ارتكاب "جرائم ضد الإنسانية".

صحيح أن المؤسسة العدلية المتمثلة في المحكمة الجنائية الدولية بموجب نظامها الأساسي، الذي تم إقراره في مؤتمر روما الدبلوماسي بتاريخ 17 يوليو 1998، والذي دخل حيز التنفيذ في 1 يوليو 2002، تعتبر هيئة دولية لها السلطة لممارسة اختصاصها على الأشخاص إزاء أشد الجرائم خطورة في موضع الاهتمام الدولي، مثل جرائم الإبادة الجماعية، وجرائم الإنسانية، وجرائم الحرب، إلا أن القرار الصادر

من المحكمة في حق "بوتين" هو قرار هزيل وليس سليم من الناحية القانونية، لأن روسيا لا تعتبر من الدول المنضمة لمعاهدة روما بالأساس كما أن الولايات المتحدة لم توقع أيضا على المعاهدة؛ حتى يمكن للفواعل الإفلات من الملاحقات الجنائية.

وهنا نجد انتقائية في تحديد جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية وإختيار الدولة المستهدفة سياسيا، فالمصالح تظل هي الموجه الأساسي والرئيس الذي تتعامل به الولايات المتحدة في صراع الافيال الذي تستخدم فيه روسيا آلاتها العسكرية وتهدد بالضربات النووية، وتستخدم الولايات المتحدة ليس العتاد العسكري والمساعدات العسكرية ل-أوكرانيا وحسب لكن تطويع القانون الدولي والمؤسسات العدلية الدولية لذات المصلحة، ولجوءا للعقاب بغرض تقويض القوة الروسية والإنفراد بالهيمنة والسيطرة الدولية الآحادية.

ولأن تحقيق المصالح والمنافع هو اللغة السائدة والثابتة في النظام العالمي، فإن الجهات الفاعلة تستخدم الإنتقائية والإختيارية في تطويع مفردات القانون الدولي وبنود مواثيق الأمم المتحدة بما يتلاءم مع متطلبات المصلحة، وتسمى في ذلك التطويع الأشياء بغير مسمياتها، لذا فإن جنوح اليمين الإسرائيلي المتطرف الحليف الرئيس للولايات المتحدة، لأقسى الجرائم والفظائع في الداخل الفلسطيني مثل قتل الأبرياء والعزل والاطفال والنساء وتعريتهن (كما حدث في الأيام القليلة الماضية ما يعد انتهاكا للكرامة الإنسانية ومما يندى له الجبين) وقتل الاطباء والمسعفين وذوي الاحتياجات الخاصة، لا تقابل تلك الافعال المهينة للإنسانية بوصفها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، لكن توصف بذريعة ومسمى الدفاع الشرعي عن النفس وحسب!

ولم تقف محاولات تجاوز القانون وتغيير مسمياته على نحو ما قد ذكرنا

بل وصلت محاولات التبديل والتحريف إلى مسميات جديدة تحتاج إلى بذل الجهد لمعرفة كنهها وحقيقتها، مثل صفقة القرن ومشروع الممر الاقتصادي الجديد.

في صفقة القرن الترامبية تم الاعتراف بالقدس عاصمة لاسرائيل في مفهوم جديد يدعو دول النظام العالمي لنقل السفارات من تل ابيب إلى القدس، بما ينطوي ذلك على مكاسب آنية لأطراف الصفقة جميعهم وأولهم بطبيعة الحال إسرائيل، وبما يعني اعترافا ضمنيا بدولة إسرائيل وعاصمتها القدس متجاوزة القانون الدولي والجرائم ضد الإنسانية التي تمارسها إسرائيل!

وفي وقت كانت تستعد فيه أكثر من مائة وعشرين دولة في الجمعية العامة للأمم المتحدة للتصويت في قرار يدعو الولايات المتحدة إلى سحب اعترافها بالقدس عاصمة لإسرائيل ورفض أي ممارسات تمس الوضع التاريخي للمدينة المحتلة ،ذكرت السيدة" نكي هالي" سفير الولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة

وقتذاك في سابقة خطيرة، أن الولايات المتحدة لن تتراجع عن قرار نقل السفارة إلى القدس مهما كانت نتائج التصويت علي مشروع القرار، لأن الشعب الأمريكي يريد ذلك ولأنه أيضا القرار الصائب! وعندما يتخذ قرار بخصوص أين تكون موقع سفارتهم فانه لا ينبغي أن يتوقع من هؤلاء الذين قدموا لهم المساعدة أن يستهدفوهم، وأضافت أنه سيكون هناك تصويت في الجمعية العامة ينتقد اختيارهم والولايات المتحدة ستقوم بتدوين أسماء الدول!

ولم تكتفي السيدة "نيمراتا" (وهذا هو اسمها الحقيقي) بالانتقاص من كرامة هذه الدول انتقاصا واضحا واستخدام التهديد والوعيد بل أضافت: أن الاعتقاد السائد في الأوساط الأمريكية أن السماء ستطبق علي الأرض، ولكن لم يحصل شئ إذ مر الخميس والجمعة والسبت والاحد ولا تزال السماء في مكانها ولم تسقط،.. أما أخطر ما تفوهت به علي الإطلاق فهو ما جاء على لسانها أمام مؤتمر لجنة

الشؤون العامة الأمريكية والإسرائيلية (الايباك) وهي من أكبر جماعات الضغط في الولايات المتحدة الداعمة ل-إسرائيل : أنا ارتدي حذاء ذا كعب عال ليس من أجل الموضة ولكن لركل أي شخص يوجه انتقادا لإسرائيل!

وفي ذات التغيير وتبديل المسميات اتجهت الولايات المتحدة لصفقة جديدة ومسمى جديد من نوعه وهو مشروع الممر الاقتصادي الذي يربط بين الهند والشرق الأوسط وأوروبا ، ومن أهدافه الظاهرة إنشاء خطوط للسكك الحديدية وربطها مع الموانئ البحرية لنقل الكهرباء والنقل الرقمي للمعلومات، وتسهيل نقل الصادرات من البضائع والمواد الغذائية وعمليات التبادل التجاري، لكن أهدافه الباطنة محاولات التطبيع التي تقوم بها الولايات المتحدة بين الدول العربية وإسرائيل على النحو الذي يجعل بين طرفي التطبيع علاقات سياسية واقتصادية وعسكرية وثقافية متبادلة ، وهي في مجملها محاولة للقفز

على القانون الدولي والنصوص التي تجرم وتعاقب مرتكبي جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية.

صحيح أن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية هي من الجرائم التي وضع نظام روما الأساسي لها تعريفا ثابتا في الباب الثاني، ولم تكن المعضلة في مدى قابليتها للتطبيق وإنزالها إلى الواقع بمعني التزام الوحدات السياسية بها التزاما يفرض عليها الامتثال الكامل، لكن في عدم تطبيقها بشكل عادل على كل الوحدات السياسية، بما فيها جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي ترتكبها إسرائيل والولايات المتحدة وروسيا، ولهذه الأسباب إمتنعت الدول الثلاثة عن التوقيع في نظام روما الأساسي، وكانت كل الاتهامات والملاحقات الجنائية تطال وتطارد الدول الإفريقية وحدها ويغلب عليها النظرة العنصرية والاستعلائية، ويكاد يصدق وصف وزير الإعلام الغامبي: أن المحكمة الجنائية الدولية هي في

الواقع محكمة قوقازية دولية لملاحقة وإذلال الملونين، وبخاصة الأفارقة رغم أنها تسمى: المحكمة الجنائية الدولية.

ولأن محكمة الجنايات الدولية ونظام الأمن الجماعي بهذا الشكل الذي تمارس فيه الفواعل السياسات الإنتقائية والإختيارية وتقديم الاوراق المناسبة في الأوقات المناسبة على نحو ما قد ذكرنا، غير قادرة على تحقيق السلم والأمن الدوليين بصورة نزيهة وعادلة، فإنه في تقديري حان الوقت للبحث عن نظام عالمي جديد يتحقق فيه الأمن والسلم الدوليين.

فمتى تدرك المحكمة الجنائية الدولية أنها بحاجة لمراجعة قوانينها ليتم تطبيقها على جميع الدول الأعضاء بالأمم المتحدة، لضمان وجود محاكمات عادلة ومستقلة من أجل تحقيق العدالة الشاملة والمنصفة، ومتى تدرك أنها لم تعد تصلح للغرض الذي أقيمت من أجله، وهو ملاحقة مرتكبي جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية؟

## نهاية طباخ الرئيس

في يوم الأربعاء 23 اغسطس/آب 2023 الماضي لقي زعيم مجموعة فاغنر "يفغيني بريغوجين" مصرعه في روسيا، إثر تحطم طائرة خاصة كانت تقله مع سبعة آخرين من موسكو إلى سانت بطرسبرج، منهم الرجل الثاني في المجموعة "ديمتري أوتكين" و "فيتالي تشيكالوف" المسؤول الوحيد عن تنظيم تحركات رئيس فاغنر بالإضافة إلى ثلاثة آخرين هم طاقم الطائرة لقوا حتفهم جميعا.

ولأن "بريغوجين" قام بحركة تمرد فاشلة في يونيو/حزيران الماضي ضد القيادة الروسية ومسؤولي وزارة الدفاع (وزير الدفاع الروسي "سيرغي

شويغو" ورئيس الأركان "فاليري غيراسيموف")، فقد إتهم الإثنين بعدم الكفاءة وسوء إدارة الحرب ضد أوكرانيا وبالتضحية بعشرات الآلاف من الجنود في الحرب، بل أنهم حاولوا تفكيك مجموعة فاغنر التي تقوم بأصعب وأخطر المهام العسكرية خارج الحدود، فقد كان لهذا التمرد والنزاع مع القيادة الروسية عواقب وخيمة، جعلت الرئيس "بوتين" الذي اعتاد على الثأر المتأخر ان يخالف هذا التعود وأن تكون النهاية لقادة الميليشيا مبكرة في اعقاب شهرين فقط من إعلان التمرد.

تعتبر فاغنر شركة عسكرية خاصة تتبع ل-"يفغيني بريغوجين" وهو مرتزق يتمتع بصلات وطيدة مع الرئيس الروسي " فلاديمير بوتين" ومن أفضل الطباخين للكرملين، وعناصر المجموعة هم أيضا في الأصل مرتزقة من قدماء المحاربين المتقاعدين من خدمات أمن الدولة، تتراوح أعمارهم بين 35 و55 عاما، بالإضافة إلى مقاتلين موالين لموسكو

من دول الاتحاد السوفياتي السابق وكذلك من حليفتها صربيا، شاركت المجموعة في عدة نزاعات مختلفة مثل النزاع السوري إلى جانب نظام "بشار الأسد"، كما شاركت مع القوات الإنفصالية التابعة ل- "جمهورية لوغانسك الشعبية" و"جمهورية دونيتسك الشعبية" اللتين أعلنتا الانفصال عن أوكرانيا، كما لعبت دورا هاما في الغزو الروسي لأوكرانيا، إلى جانب كونها القوات الأساسية الراعية للمصالح الروسية في الدول الإفريقية.

وفي وقت يتجه فيه العالم لخصخصة الحرب وتمرير المسؤولية، فإن المجموعة تعتبر من أهم الأذرع العسكرية للقيادة الروسية وتقوم بمهام خارج حدود روسيا هي من اصعب وأخطر المهام، مثل حماية أنظمة الدكتاتوريات الحاكمة في إفريقيا من أي عدوان أو محاولات انقلابية، وعرقلة نجاح الثورات والتحول الديمقراطي في المحيط العربي، ومحاصرة النفوذين الأمريكي

والغربي في إفريقيا، لذا فقد كان مقتل "بريغوجين" مثيرا للعديد من التسأولات والتأويلات.

ولأن مصرع "بريغوجين" وقع ليلة عيد استقلال أوكرانيا الذي يصادف 24 أغسطس/آب من كل عام، فقد كان بعض الخبراء الروس مثل "سيرغي ماركوف" مدير معهد الدراسات السياسية الروسي يرى في تحليله لحيثيات مقتل "بريغوجين"، إنه يرجح أن تكون الطائرة قد استهدفت من القوات الخاصة الأوكرانية باعتبار أن ذلك يعد هدية للقيادة الأوكرانية في كييف بمناسبة عيد استقلال أوكرانيا، بينما رجح محللون آخرون أن مقتل "بريغوجين" جاء بأمر من الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" عقب التمرد الذي قاده قائد فاغنر ضد منظومة الدفاع الروسية، ودخول قواته مدينة "روستوف" الحدودية مع أوكرانيا، وهو ما اعتبرته القيادة الروسية تمردا مسلحا وخيانة عظمى وأعطت الأوامر بالتعامل معه.

وفي تحليل آخر يرى محللون أن اغتيال " بريغوجين" يخدم في المقام الأول مصالح الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبي، الذين يسعون للانتقام منه؛ بسبب نشاطات مجموعة فاغنر في الحرب في أوكرانيا، ومساعدة الإنفصاليين الأوكران في لوغانسك و دونيتسك، وتهديد النفوذ والوجود الأمريكي والغربي في أفريقيا.

ولأن قيادة فاغنر غير مستقلة تماما في ادارتها للمجموعة إذ أنها ترتبط بالقيادة الروسية مباشرة، رغم نفي هذه الحقائق من القيادة الروسية التي تدعي أن مجموعة فاغنر لا تحظى بشرعية قانونية رسمية من روسيا لاحتكار إستخدام العنف وهو ما يعني إنتهاكا واضحا للدستور الروسي، ومخالفا لأحكام المادة 359 من قانونها الجنائي التي تجرم وتحظر الارتزاق.. لأنها غير مستقلة فإن صنع القرار والتوجيهات وتخطيط الأدوار وتحديد بدايتها ونهايتها تكون

من القيادة الروسية باعتبارها المحرك الأول والأخير للميليشيا.

هناك افتراضان في تقديري للقيادة العليا ولنسمها القيادة (أ) التي تقوم بتحريك وتوجيه وإرشاد القيادة المباشرة للميليشيا ولنطلق عليها القيادة (ب)، في محاولة لفهم النهاية المأساوية ل-"بريغوجين" وربما أي قادة للميليشيات من النوع (ب).

الافتراض الأول: أن تسير العمليات القتالية الهجومية أو التأمينية في ترتيب مدروس وبنجاح في النزاع أو الصراع في أي رقعة جغرافية، سواء داخل حدود الدولة أو خارجها وفق ما تحدده القيادة (أ) ، بما في هذا التحديد من وضع الخطط الهجومية أو الدفاعية أو التأمينية والإستراتيجيات الحربيةوالإمداد الحربي وكل ما يتعلق.

الافتراض الثاني: هو المعاكس تماما للافتراض الأول وهو أن لا تسير العمليات القتالية الهجومية أو الدفاعية وكل

ما يتعلق بمجريات الحرب كما تحدده القيادة ( أ ) للأسباب الأتية :

1-وجود مقاومة قوية وعنيفة غير متوقعة من الاطراف الاخرى المعادية لعناصر الميليشيا ، ما يؤدي إلى تحول تلك الاطراف من الوضع الدفاعي للوضع الهجومي وإحكام الحصار على القيادة (ب).

2_ضعف الروح المعنوية والإرادة القتالية لافراد وعناصر المليشيا ، إما بسبب الإنهاك والإستنزاف لفترات طويلة في الحرب، وإما بسبب وجود مقاومة في ذات المنطقة سياسيا أو عسكريا أو معنويا أو لوجستيا بسبب إنقطاع الإمدادات الحربية والنقص الحاد في الذخائر.

3_نشوب نزاع في اتخاذ القرار وصنع القرار بين القيادة (ب) والقيادة (أ).

4_أن تبدو عناصر وافراد الميليشيا أو القيادة (ب) بشكل بشع ومنفر للمجتمع الدولي، مثل ارتكاب العناصر

لجرائم الحرب أو جرائم ضد الإنسانية تتمثل في القتل العمد للمدنيين والاطفال والاغتصاب، وكل الفظائع المتوقعة وغير المتوقعة التي تمثل انتهاكا للإنسانية وحقوق الإنسان، إلى الحد الذي تلاحق فيه المجموعة إعلاميا وجنائيا في كل المنابر والمؤسسات الدولية القانونية.

في النقطة الثالثة كان "بريغوجين" وربما أي قيادة ميليشيا من النوع (ب) قد حدد مصيره ونهايته المبكرة على نحو ما قد أسلفنا، لأن "بريغوجين" كان له قرار خاص في إدارة الحرب ضد أوكرانيا يتعارض مع رؤية القيادة (أ) بل صرح أن الأسباب التي قدمت للغزو والاجتياح لم تكن إلا أكاذيب.

مع هذا فإن منازعة القرار في الافتراض الثاني مع القيادة (أ) أو تقهقر الموقف القتالي للميليشيا بما يقود للهزيمة، أو في النقطة الرابعة التي تطفو فيها فظائع وجرائم الميليشيا على السطح الاعلامي الدولي،

فإن رد الفعل المتوقع من القيادة (أ) تجاه القيادة (ب) في تصوري هو واحد من اثنين: إما التصفية الجسدية للقيادة (ب) وأبرز الشخصيات والعناصر المؤثرة فيها كما في نموذج "بريغوجين" و "ديمتري أوتكين" و "فيتالي تشيكالوف" في حادث الطائرة المنكوبة، أو إستبدال وتغيير القيادة (ب)، والأرجح أن يطبق التصور الأول بصورة غالبة لتفادي المتاعب التي قد تنجم من هذه القيادة (ب) التي بحوزتها الكثير من الملفات والاسرار التي قد تكون وبالا على القيادة (أ) لاحقا، ولأن وجود القيادة (ب) الفاشلة سيظل مصدر قلق وازعاج مستديمين بسبب من قراراتها الخاصة ونزاعاتها المحتملة، كما أنها تعتبر وصمة عار على جبين (أ) لفشلها الذريع أو معارضتها وتذمرها المتكرر.

إذا طبقنا تلك الافتراضات على مجموعة فاغنر سنجد أنها متطابقة تماما مع نهاية "بريغوجين" و "ديمتري

أوتكين" و "فيتالي تشيكالوف" المأساوية، وربما ينطبق السيناريو والافتراض مع أي قيادات من النوع (ب) تدخل هذا المدخل وتسلك ذات المسلك.

إضافة لما سبق فإنه بالنسبة لقيادات الميليشيات المهزومة ميدانيا عسكريا أو معنويا، إما بسبب الإنهاك والاستنزاف المتزايد أو نقص الأسلحة النوعية والذخائر أو من تنامي الدعاية الإعلامية التي تظهر الوحشية والبربرية التي تمارسها على المدنيين، فإنه ربما تواجه نفس مصير "بريغوجين" وهو التصفية الجسدية إما من القيادة (أ) مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بأن تترك في الميدان لتلاقي مصيرها المحتوم، هذا طبعا بعد استنفاد الفرص في إعادة حالة قوات الميليشيا إلى وضعها القتالي الأول المصادم.

هنا قادة الميليشيات يواجهون ثلاثة مصائر سوداء: اما أن تهرب بنفسها إلى دولة أخرى تقدم لها حماية أكبر، وإما أن تلاقي التصفية الجسدية بطريقة

مباشرة أو غير مباشرة، وإما ان تلاقي المصير الثالث وهو الإنتحار. الواقع المنظور والمقروء أيضا حافل بهذه النهايات الثلاث

## اعمال صاحب السيادة

تعتبر السيادة في بنية الدولة هي حقيقة السلطة الآمرة والناهية والموجهة لكل التكاليف الصادرة من رأس السلطة أو القيادة بما يحقق استقرار وإستقلال الدولة وحماية حدودها، وإذا كانت الدولة على المستوى الإقتصادي أو الأمني والعسكري في حالة تراجع وقصور أو تدني أو إنهيار، بسبب وقوعها في نزاعات وحروب هجينة قد كسرت من شوكتها وأوشكت على فقدان تماسكها للدفاع عن سيادتها، أو بسبب حروب داخلية ضد مجموعات أو ميليشيات متفلتة أو متمردة، فهذا يرجع إلى فساد وخلل في المنظومة القيادية والسيادية، وإنحراف صاحب السيادة عن تنمية القوة المتكاملة باختلاف اضرابها وأشكالها

وفقدانه للإرادة السياسية وعدم قدرته على الإمساك بهما تماما.

ارتبطت نظرية السيادة منذ القرن السادس عشر بالمنظر الفرنسي "جان بودان" Jean Bodan وفي كتابه (ستة كتب في الجمهورية) عرف السيادة بأنها: سلطة الدولة العليا المطلقة والأبدية والحازمة والدائمة التي يخضع لها جميع الأفراد رضاء أو كرها، وفي هذا التعريف قدم "بودان" السيادة على مستويين: المستوى الأول يتصل بالكيانية السيادية في معناها المطلق، والمستوى الثاني بصاحب السيادة. في المستوى الأول عرف السيادة أنها القوة المطلقة والأبدية والدائمة الكامنة في الدولة، أما في المستوى الثاني فقد قدمها باعتبارها الصفة المميزة لصاحب السيادة الذي لا يخضع بأي شكل لأوامر الآخرين، كونه هو الذي يضع القوانين التي يخضعون لها، أما "هوبس" فلم يبتعد كثيرا من المعنى، فقد عرف السيادة أنها: سلطة ذلك الفرد

أو تلك الهيئة الذي أو التي تمتلك سلطة الإرادة التي تنازلت عنها الأغلبية في مقابل منح الأغلبية حياة آمنة مطمئنة.

غير أن مفهوم السيادة كان حاضرا في أوروبا قبل "جان بودان" و"هوبس" بكثير، تحديدا منذ القرن الثالث عشر حيث كان تعبير السيادة في أوروبا وقتذاك شائعا ومرادفا لمكانة الفرد المتميز أو صاحب المنزلة الرفيعة أو السيد في التراتبية السياسية والاجتماعية، ولم يأخذ معناه الإعتباري إلا بعد نشأة الدولة القومية في اعقاب اتفاقية وستفاليا 1648 حيث ساد شعور عام بضرورة سيادة الدولة وضرورة مبدأ المساواة في التفاعل الدولي والعلاقات الدولية.

صحيح أن السيادة لها مظهران داخلي وخارجي على مستوى الدولة، يتمثل المظهر الداخلي في بسط النفوذ الكامل على الافراد والهيئات وتمكين السلطة على كافة مفاصل الدولة، ومظهر خارجي

يتمثل في فرض المساواة والندية مع غيرها من الأمم والدول، واحترام سيادة الدول الأخرى، وعدم خضوعها لأي إرادة سيادية من دولة أخرى، إلا انه لا يمنع من عقد الاتفاقات والمواثيق مع الدول الاخرى متى ما إقتضت المصلحة والضرورة بل يعد من لوازم السيادة.

ولأن النظام العالمي المعاصر وفي ظل هيمنة القطبية الآحادية ازدحم بالمفاهيم والمنظمات الفاعلة غير الحكومية والمنظمات الاقليمية والدولية، مثل منظمات حقوق الإنسان والاتحاد الأوروبي ومكافحة الإرهاب والتطرف، وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيرها، فقد كان من شأن المنظمات الفاعلة الدولية أحيانا التدخل السافر في الدولة بتلك المسميات في أنحاء كثيرة في العالم على نحو ما جرى (ولا يزال) في المحيط العربي والدول التي تنشط فيها الجماعات الجهادية والتنظيمات

المتطرفة، وبات من السهولة بمكان في عالم تغلب فيه لغة المصالح مس هيبة الدولة وسيادتها بتلك الذرائع من الجهات والمنظمات الفاعلة، أحيانا بطلب من صاحب السيادة للضرورة، وأحيانا كثيرة لتحقيق مصالح وغايات لأطراف وجهات أخرى.

ولأن عالم اليوم في ظل العولمة وشبكات الاتصال وادوات التجسس المتطورة والمعقدة والتي تأخذ اشكالا كثيرة بات قرية صغيرة ومكشوفة، فقد كانت الفواعل والمنظمات الفاعلة تستخدم المسميات المستترة في اغلب الأحيان لتحقيق مصالحها الخاصة، ولا تكلف نفسها عناء المواجهة المباشرة، إضافة، فإن انتهاك سيادة الدول بهذه الطريقة في اغلب الاحوال يترافق مع إزدواجية المعايير وانتقائيتها، مثلما يحدث في فلسطين وإيران على سبيل المثال.

ورغم أن معنى السيادة ينطوي على قدر كبير من الاستقلالية في شؤون الدولة

بما يتضمن ذلك استقلالها في قرارها وإرادتها وبسط هيبتها داخليا وخارجيا بما يحصل الاستقرار والأمن، إلا أن المفهوم في ظل النظام العالمي الذي ترتبط فيه الدول بالاتفاقات والمواثيق والمنظمات الدولية قد أدى ليس لإلغاء سيادة الدولة لكن تحجيم هذه السيادة بالقدر الذي يتيح للمنظمات الدولية توقيع العقوبات الاقتصادية كوسيلة ردع وزجر أحيانا، وربما التدخل في الشؤون الداخلية للدولة في حالة ما يوجب ذلك وفقا لفقهيات القانون الدولي، وباعتبار أن الدولة مشاركة وعضو في الأمم المتحدة وملزمة بالتالي بقراراتها وما يجمع عليه مجلس الأمن.

غير أن مجلس الأمن الذي يعتبر الجهة المخولة دوليا والمنوط بها فرض حالتي الأمن والسلم الدوليين بحسب مواثيق وبنود القانون الدولي وما تقتضيه ضرورة الأمن الجماعي، لم يسلم من القصور والوصول للنزاهة الكاملة التي تعزز فيه الثقة المطلقة، لوجود

حق اعتراض القرارات باستخدام حق النقض الذي هو حكر للخمسة دول دائمة العضوية، ولأن هذه الدول الخمس تنظر الى المصالح الخاصة بها قبل كل اعتبار فإن تعزيز الأمن والسلم الدوليين يكون بهذا الحق ناقصا لا عدالة فيه.

ولنضرب مثالين فقط على إنتهاك سيادة الدول وإنتشار الفوضى العالمية: أولا في غزو العراق، فقد كانت الفواعل مكيافيللية التوجه (إن صح هذا التعبير) وتبرر الوسائل من أجل الغايات والمصالح؛ كان الكذب وقلب الحقائق هما الوسيلة الوحيدة لتدمير العراق وإنتهاك سيادته، واعترف رئيس الوزراء البريطاني الأسبق "توني بلير" بذلك صراحة عندما حاصره البرلمان البريطاني والمجتمع الدولي مما اضطره إلى أن يشرب من قارورة أمامه في منصة البرلمان البريطاني عدة مرات، بعد أن عرف الجميع كذبه واهلاكه للجنود البريطانيين والعراقيين معا، وتدميرهم للعراق وانتهاك سيادته

بذريعة مفتراة مكذوبة وهي نزع وتدمير أسلحة الدمار الشامل.

والمثال الثاني هو النزاع النووي الإيراني فقد وقعت عام 2015 روسيا والولايات المتحدة والصين وبريطانيا وفرنسا وألمانيا، على اتفاق خطة العمل المشتركة الشاملة (JCPOA) الاتفاقية النووية، والتي التزمت إيران بعد التوقيع عليها بتجميد أنشطتها النووية، وعدم حيازتها مواد انشطارية لمدة 15 عاما مقابل تخفيف العقوبات الاقتصادية المفروضة عليها، لم يكن ذلك مقبولا ومستساغا ل-إسرائيل لما تمثله إيران النووية من مصدر خطر وجودي لها، لذا عندما أعلن" ترامب" الانسحاب الأحادي من الاتفاقية في 8 مايو/ايار2018 واصفا إياها بأنها من أسوأ الاتفاقات في تاريخ الولايات المتحدة، وأنها تمنح إيران أكثر بكثير من الدول الموقعة عليها، كانت إسرائيل من أول الدول المباركة، وفي إنتهاك واضح لسيادة الجمهورية الإيرانية قامت

بعمليات تخريب واسعة في مفاعل نطنز النووي لاحقا .

وفي مسلمات العلاقات الدولية التي تتضح كل يوم أن أصدقاء الأمس هم أعداء اليوم وأعداء اليوم هم أصدقاء الغد، لذا من المفيد لصاحب السيادة أن يكون على أهبة الاستعداد لأي نزاع محتمل ينقص من سيادة الدولة، وهذا لا يكون في تقديري إلا بتعظيم القوة في الوقت الراهن، بتطوير الآلة العسكرية وزيادة عددها وأنواعها وتطوير مراكز البحث العلمي المختصة بهذه الصناعة، ليس هذا وحسب بل الانضمام للتحالفات والمجموعات الأقوى لاحقا ، لما في الاتحاد والتحالف من تراكم للخبرات والمهارات التي من شأنها قلب موازين النزاعات.

من ناحية ثانية فإن زيادة الدولة مستواها الاقتصادي هو أيضا قوة تضاف لقوتها العسكرية، وتمنع الدولة من رهن قرارها وإرادتها وسيادتها للدول الأخرى، ولنضرب أيضا مثالين على ذلك: أولا مشروع الحزام والطريق، فقد عمدت

الصين إلى إلتزام سياسات جديدة تحاول من خلالها إحداث تحول في بنية النظام الدولي، وهو إحداث التحول من آحادي القطبية إلى نسق متعدد الأقطاب أو إلى الوصول إلى حالة من اللاقطبية في النسق الدولي وكان مشروع "الحزام والطريق" أو "طريق الحرير" هو المبادرة التي خرجت بها الصين على العالم ، وأكدت فيه ضرورة الاحترام المتبادل للسيادة والسلامة الإقليمية وعدم التدخل في الشئون الداخلية للدول، وإدارة الصراعات الدولية سلميا ، ومعارضة استخدام أو التهديد باستخدام القوة، ودعم مفهوم جديد للأمن يكون جوهره الثقة المتبادلة والمساواة في السيادة بين الدول أيا كانت ظروفها الاقتصادية والسياسية ، وتحقيق التعاون المنفعي المتبادل والتنمية المشتركة بين الدول كافة ونتيجة لتلك السياسة الصينية الاقتصادية المبتكرة، اتجه الاتحاد الأوروبي بسبب حاجته الاقتصادية لتفعيل الميزان التجاري والاقتصادي

مع الصين، بعد أن أظهرت مؤخرا الدراسات التي يقوم بها خبراء الاقتصاد ان أوروبا بأكملها باتت على نحو 6 آلاف و887 منتجا صينيا للحفاظ على إنتاجها وصناعاتها .

ثانيا : النموذج التركي، فقد حققت تركيا بسبب اهتمامها بقوة الدولة الاقتصادية رغم المتغيرات العالمية والزلازل التي تعرضت لها ، حققت معدلات نمو اقتصادي غير مسبوقة، وأعلن وزير الخزانة والمالية مؤخرا: استطاع بلدنا أن يصبح ثاني أكثر بلد نموا على أساس سنوي في الربع الأول من العام بين دول الاتحاد الأوربي ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية التي تم الإعلان عن بياناتها .وفي هذا قوة تضاف إلى مكونات القوة التركية الأخرى بما يزيد من ترسيخ وتثبيت وزيادة السيادة.

ختاما فإنه رغم أهمية تعظيم القوة وتعظيم اقتصاد الدولة حتى تمتلك الدولة سيادتها وإرادتها كاملة، فإن نقصان هذين العاملين لا يمكن أن يكونا

سببا أساسيا في الهزيمة في حالة الإيمان العميق، لأنه وحده قادر على قلب الموازين، ويتجلى ذلك بصورة واضحة في تاريخ الحروب؛ مهما قاتل فيها الطرف الآخر بضراوة وبربرية ووحشية، إن الإرادة هنا تتمثل في الإيمان العميق الذي يحيل كل تلك الألوان إلى لون واحد وهو الهزيمة الشنيعة؛ وفي سيرة الإسلام جلاء لذلك الفهم السليم من عهد النبوة إلى يومنا هذا. فهل يدرك تماما هذه الاعمال صاحب السيادة ؟

## طوفان الأقصى: الهزيمة المرة

نفذت حركة حماس يوم السبت 7 اكتوبر/تشرين الأول 2023 أكبر عملية هجومية غير مسبوقة ضد العدو الإسرائيلي المحتل، ردا على الانتهاكات الإسرائيلية المتكررة في باحات المسجد الأقصى وإعتداء المستوطنين، واسفرت العملية عن مقتل ما يزيد على الألف جندي إسرائيلي ما أدى إلى هزة واضطراب كبير في الدولة العبرية، ولأن فصائل المقاومة الفلسطينية تتبع لأول مرة العمليات الهجومية الاستباقية في إستراتيجيات الحرب ضد إسرائيل وعلى غير العادة لذا كان مردودها العسكري والسياسي والمعنوي قويا شديدا أصاب دولة الاحتلال بحالات الذهول وفقدان الإتزان.

دلالة فقدان إسرائيل للإتزان هو العمليات واسعة النطاق التي باشرتها حكومة الحرب الإسرائيلية ضد قطاع غزة، الذي مثل لها ولا يزال، مصدر قلق وازعاج مستديمين، واستهدفت تلك العمليات التي تعتبر رد فعل للهجوم الفلسطيني المباغت والمفاجئ، محاولة مسح الهزيمة المرة التي تجرعتها في الضربة الاستباقية الأولى أو التقليل منها، في وقت حرج وتوقيت سيء للداخل الإسرائيلي المهتز والمضطرب في الآونة الأخيرة، ومحاولة لإعادة الاتزان والثقة في المقدرة والقوة العسكرية الإسرائيلية التي تعتبر رابع أكبر قوة عسكرية على مستوى العالم.

وكونه توقيتا سيئا لها وتوقيتا جيدا وموفقا ل-حماس هذا يرجع إلى نجاح كتائب عز الدين القسام وسرايا القدس وبقية فصائل المقاومة في اختيار هذا التوقيت الدقيق، باعتباره توقيتا إستراتيجيا من الدرجة الأولى، في وقت

تعاني فيه الولايات المتحدة والغرب من نقص حاد في الذخائر وخزانات البارود نتيجة للحرب الروسية الأوكرانية الطويلة، ومن ناحية ثانية تمثل الصين القطب الصاعد خطرا محدقا ومزعجا من ناحية الشرق للولايات المتحدة، خاصة بعد تنامي نبرات العداء والتهديد والتنافس الاقتصادي والعسكري من خلال المجاميع الاقتصادية التي يطرحها ويسوق لها كلا الدولتين العظميين، وهذا من شأنه أن يجعل القوة الأمريكية والغربية على السواء في أضعف الحالات والمنحنيات.

وفي الوقت الذي ارسلت فيه الولايات المتحدة حاملة الطائرات الضاربة "جيرالد فورد" ولاحقا "يو إس إس آيزنهاور" إلى المتوسط محملتين بالطائرات المقاتلة لصد وردع الهجوم الفلسطيني، أو لردع الأعمال العدائية ضد إسرائيل أو أي جهود لتوسيع الحرب بحسب تعبير وزير الدفاع الأمريكي "لويد أوستن"، فإن هذا أيضا له دلالة على

التفوق العسكري النوعي والتخطيط الإستراتيجي الذي وصلت إليه فصائل المقاومة، والتي أحدثت فارقا ملحوظا على الأرض في اللحظات الأولى من إندلاع الحرب، وأفشلت حوائط الصد التي قامت إسرائيل ببنائها كما فشلت القبة الحديدية في التصدي التام والكامل لرشقات الفصائل الصاروخية المباركة، وهذا بدوره يجعل من معادلة الحرب وتوازن القوى في المنطقة مختلا لأول مرة منذ حرب اكتوبر/تشرين الأول1973 بفضل الله ثم بالعمل على تعظيم وتطوير القوة الصلبة، والانتقال من طور الدولة الضعيفة إلى الدولة القوية التي تستطيع فرض التوازن الصلب في الصراع العربي الإسرائيلي، الذي يعتبر من اطول الصراعات والنزاعات في العالم.

ولأن حركة المقاومة (حماس) بادرت بالضربة الأولى الناجحة، فإن رد الفعل الإبتدائي المتوقع هو قيام إسرائيل بعمليات هجومية انتقامية تتمثل في الهجوم الواسع على القطاع (وهذا ما

حدث بالفعل) تمهيدا لمعركة برية وشيكة؛ من أهدافها ربما احتلال القطاع احتلالا كاملا والقضاء على حركة (حماس) وإبادتها ابادة تامة، لذا فقد عمدت سلطات الاحتلال لاستدعاء قوات الاحتياط من الخارج (نحو 300 ألف جندي) في أكبر عملية استدعاء في تاريخ إسرائيل على مدى سبعة عقود خلال فترة زمنية قصيرة، كما وصفها المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي في إطار الرد على هجوم حركة المقاومة الإسلامية من قطاع غزة على جبهات متعددة والاستعداد لغزو محتمل، إلا أنه بوسع أي مراقب منصف أن يقرأ هذه العملية محكوم عليها بالفشل من عدة نواحي يمكن تفصيل جزء منها على النحو التالي:

أولا: من المحتمل أن يؤدي اجتياح دولة الاحتلال لقطاع غزة إلى نشوب حرب إقليمية في المنطقة، لوجود درجة عالية من الاستقطاب في المنطقة تتوزع بين ثلاث دول عظمى وهي الولايات المتحدة وروسيا والصين، وهذا الاحتمال لا يتوافق مع

الإستراتيجية الأمريكية والغربية التي لم تتمكن إلى الآن من تحقيق سيطرة كاملة على الأرض في الحرب الروسية الأوكرانية، وهو ما يعني(إذا حدث بالفعل) عدم مقدرة الولايات المتحدة للدخول في تبعات الحرب على جبهتين، الحرب الأوكرانية من جهة والنزاع الفلسطيني الإسرائيلي من جهة أخرى، وما يعني أيضا هزيمة شنيعة للولايات المتحدة في إحدى الجبهتين، إما التخلي عن أوكرانيا لتلاقي مصيرها المحتوم أمام روسيا وصعود روسيا والصين للهيمنة القطبية العالمية، وإما أن تتخلى عن حليفتها الاستراتيجية إسرائيل. لذا فإن احتلال إسرائيل للقطاع يضع الولايات المتحدة في مفترق طرق وعرضة للإنهزام والسقوط المدوي.

ثانيا: من غير المستبعد إذا تم اجتياح القطاع ودخول دولة الاحتلال إلى غزة في حرب مدن، أن تصوب إيران صواريخها البالستية نحو تل ابيب، إذ أن القضاء على حماس وقطع دابرها يعني

تلقائيا تفرغ إسرائيل ل-حزب الله الموالي ل-إيران، وهذا ما لن يفوته آيات ايران النووية، لأن هذا أيضا بدوره يتقاطع مع الرغبة الإيرانية الفارسية في التمدد والتوسع والنفوذ في المنطقة.

ثالثا: من المرجح استخدام الصين لحق النقض إذا تمت موافقة مجلس الأمن على اجتياح دولة إسرائيل للقطاع بذريعة حق الدفاع عن النفس وإعادة السلم والأمن الدوليين، (بات استخدام هذا التبرير (حق الدفاع عن النفس) معروفا ومكررا ومستهلكا على مدى سبعة عقود، لوجود جماعات الضغط الممثلة في اللوبيات الصهيونية والايباك داخل الادارة الأمريكية، مهما بلغ حجم الاعتداء الإسرائيلي البربري والوحشي على أبرياء فلسطين، وهنا تتعامل الولايات المتحدة ومجلس الأمن بازدواجية واضحة للعيان، تراعي في ذلك رغباتها ومصالحها كما تراعي بقية

الدول الخمس دائمة العضوية مصالحها مع الولايات المتحدة).

إضافة لما سبق فإن سيناريوهات احتلال القطاع احتلالا كاملا أو محاولة تفريغه من السكان أمر لا يتجاوز الحرب الدعائية والنفسية، وهو خطاب موجه للداخل الإسرائيلي المنهار معنويا بعد ارتعابه من الصواريخ المباركة ودخولهم الملاجئ، وبنفس القدر تخدم هذه الدعاية والخطاب داخل غزة، محاولة التأثير النفسي على سكان القطاع في محاولة لتشريدهم وتهجيرهم وافراغ القطاع من السكان، لذا فإن محاولة احتلال القطاع محكوم عليها بالفشل الذريع وذلك في تقديري لسببين رئيسيين:

أولا: اجتياح المشاة للقطاع يعني دخول إسرائيل في حرب مدن أو حرب عصابات، وهذه تعتبر مخاطرة غير مضمونة العواقب وتزيد من كلفة الخسائر المادية والبشرية والمعنوية، وربما تكون في اغلب الأحوال حربا طويلة لا يستطيع جيش الدفاع الإسرائيلي الصمود

إلى نهايتها، وذلك للشواهد التاريخية مثل حرب أكتوبر 1973ويالها من شواهد.

في حرب اكتوبر 1973 وضع رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية وقتذاك الفريق "سعد الشاذلي" خطة المآذن العالية للهجوم على القوات الإسرائيلية واقتحام قناة السويس، بسبب من ضعف القوات الجوية المصرية وقتها وضعف امكانيات الدفاع الجوي المصري ذاتي الحركة (تقريبا نفس الظروف مماثلة ومتطابقة مع اكتوبر 2023) لتلك الأسباب فقد امتنعت القوات النظامية المصرية المبادرة بعملية هجومية كبيرة على القوات الإسرائيلية، واستعاض الفريق "الشاذلي" بخطة المآذن العالية التي تقوم على الاستفادة من نقاط الضعف لدى القوات الإسرائيلية المتمثلة في عدم قدرتها على تحمل الخسائر البشرية نظرا لقلة عدد أفرادها (ولا تزال نقطة الضعف هذه موجودة لدى إسرائيل إلى اليوم فقد بادرت باستدعاء 300ألف من

قوات الاحتياط من الخارج) ونقطة الضعف الثانية التي اعتمد عليها في ذلك الوقت هي إطالة مدة الحرب، لأنه في كل الحروب السابقة كانت تعتمد القوات الإسرائيلية على الحروب السريعة والخاطفة التي تنتهي خلال أربعة أسابيع أو ستة أسابيع على الأكثر، وفي يوم 6 أكتوبر 1973 شن الجيشان المصري والسوري هجوما كاسحا على القوات الإسرائيلية بطول الجبهتين، ونفذ الجيش المصري خطة المآذن العالية التي وضعها الفريق"الشاذلي" بنجاح غير متوقع وتهاوت اسطورة خط بارليف، ومنيت إسرائيل بهزيمة موجعة.

ثانيا: رغم توجيه مراكز البحث الإسرائيلية بضرورة اجتثاث حركة المقاومة (حماس) اجتثاثا كاملا وابادتها، إلا أن ترجمة ذلك بحرب المدن يعني انتحارا جماعيا للقوات الإسرائيلية في هذا التوقيت، خاصة في هذا الجيل الجديد مضافا إليهم قوات

الاحتياط التي تم استدعائها من الخارج اذ أن عقيدتهم القتالية يشوبها التراخي وعدم الانتماء واليقين، ولا يملكون إرادة الحرب مثل اسلافهم المتشددين من الجيل الأول والثاني المؤسسين.

مع هذا فإن الأقرب للتصور في تقديري هو قيام دولة الاحتلال بواحد من إثنين:

أولا: القيام بعمليات هجومية قصيرة الأمد تستهدف:

1_ تدمير كامل لمنصات الصواريخ وتدمير مخازن الأسلحة والبنية التحتية.

2_ تصفية القيادات العسكرية الميدانية والسياسية وعلماء تطوير التقنية العسكرية في مراحل زمنية متقاربة.

ثانيا: توجيه عدة ضربات استباقية في العمق الاستراتيجي الإيراني، من دون الرجوع للحليف الأمريكي أو استشارته.

في كل الأحوال والاحتمالات والافتراضات فإنه يحسب لحركة المقاومة (حماس) أنها نجحت في إختراق وتحطيم الهالة الإسرائيلية الزائفة واسطورة الجيش الذي لا يقهر، وفتحت الطريق إلى المسجد الأقصى بعد تحول ضعف المؤسسات العسكرية التي يناط بها حماية البلاد والدفاع عنها إلى مؤسسات قوية قادرة على فرض التوازن الصلب، وليست مثل الدول الأخرى التي تتجه إلى مسايرة الركب والتطبيع والوقوف بجانب الأقوياء.

## خواطر في طريقة كتابة (رضي الله عنهما ) و (رضي الله عنها ) في بعض كتب السنة

صليت فريضة العشاء في المسجد العتيق في هذه القرية الآمنة التي نزحنا إليها من ولاية الخرطوم؛ حيث الموت يحوم فوق الرؤوس والقذائف تطيش هنا وهناك في الحرب التي اندلعت بين القوات النظامية السودانية وقوات الدعم السريع المتمردة ابتداء من اواخر رمضان 2023

بعد أن فرغنا من فريضة العشاء والباقيات الصالحات، دعوت الله لي ولوالدي بالرحمة والمغفرة، وأن يقينا الله عذاب القبر وعذاب النار، وان يجعلنا في جنة الفردوس مع النبي محمد

صلى الله عليه وسلم وجميع أهلي والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والاموات، وأن يرزقني الله رزقا من عنده، وأن يجعل الله السودان دار أمن وامان، وسلام وسخاء ورخاء وجميع بلاد المسلمين.

ثم جلست بعدها إلى درس في كتاب (رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين) للإمام النووي شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين وتحقيق الشيخ الألباني_رحمهما الله_ كانت الجلسة طيبة نسمع فيها احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة، وطريقة التدريس ممتعة، المتحدث _حفظه الله_ في دائرة تدريسه لا يتجاوز الأربعة احاديث، ويعيد قراءة الحديث مرتين وهذا عمل جيد وأدعى للحفظ والعمل.

غير أنه في الحديث الأخير الذي اختتم به الجلسة المباركة، لاحظت أنه (مع توفر حسن الظن به) قد وقع في خطأ غير مقصود، وانتظرت القراءة الثانية فتأكد لي وقوعه فعلا في الخطأ غير المقصود، ومما يقوي اعتقادي في ذلك

هو طباعة نص الكتاب في هذه الطبعة بتلك الطريقة، وسأناقش ذلك في آخر المقال وأردفه بتوجيه نظر وملاحظة، ربما تجد وقعا حسنا وفائدة ان شاء الله للقائمين على أمر طباعة كتب السنة.

ورغم أن المتحدث كان سليم اللغة وبارعا في الإلقاء على النحو الذي لا ترقى إليه أية شكوك في براعته ولباقته وقيامه بهذه المهمة العظيمة، إلا أنه وقع في ذلك الخطأ لطبيعة البشر.

والحديث هو رقم 1149 في كتاب (رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين) للامام النووي شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين وتحقيق الشيخ الألباني_رحمهما الله_ صفحة 355 سمعته من متحدثنا مرتين على هذا النحو :

206-باب فضل صلاة الضحى وبيان أقلها وأكثرها وأوسطها والحث على المحافظة عليها

1149-وعن أم هاني فاختة بنت ابي طالب رضي الله عنهما قالت: ذهبت إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فوجدته يغتسل، فلما فرغ من غسله، صلى ثماني ركعات، وذلك ضحى.

متفق عليه وهذا مختصر لفظ إحدى روايات مسلم

وفي هذا الحديث تخبر أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها -وهي بنت عم رسول الله صلى الله عليه وسلم- أنها ذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح، وهو العام الثامن من الهجرة، وفي رواية صحيح البخاري أن ذلك كان يوم الفتح في وقت الضحى، ويكون بعد شروق الشمس قدر رمح إلى قبيل الظهر، وفيه: مشروعية صلاة الضحى

أما مصدر الخطأ الذي وقع فيه المتحدث هنا، هو أنه قرأ (رضي الله عنهما)، والصحيح كما في نص الكتاب: (رضي اللهعنها)، لأن ابو طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم مات على الشرك ولم يقل لا إله إلا الله، وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أهون أهل النار عذابا أبو طالب، و

هو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه"
ولما حضرت ابو طالب الوفاة، دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، فقال: "أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله". فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك". فنزلت: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} [التوبة: 113]، ونزلت: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين} [القصص: 56].

وقبل أن اتحدث إلى محدثنا مذكرا بخطأئه في القراءة، رأيت أن انظر في كتاب رياض الصالحين أولا قبل أن اتوجه إليه بالثناء على تذكيرنا بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بالخطأ

الذي وقع فيه، لأنه ربما يكون ذلك الخطأ في أصل الكتاب إلا أني وجدتها مكتوبة صحيحة وهي (رضي الله عنها) عندها أقبلت وأثنيت، ثم لفت نظره بلين في الخطاب إلى ذلك الخطأ غير المقصود الذي حدث في القراءة، فوقع تذكيري وتنبيهي موقعا حسنا ووجد رضا واستحسانا والحمد لله رب العالمين.

وفي ملاحظتي على طريقة نسخ جملة (رضي الله عنها) و (رضي الله عنهما) و (رضي الله عنه) و (صلى الله عليه وسلم) فهي:

أولا: مكتوبة في كامل الكتاب بلون أحمر فاتح في هذه الطبعة التي بأيدينا خلافا لباقي الخط في الكتاب الذي كله باللون الأسود.

ثانيا: نص (رضيا لله عنها) مكتوب بطريقة خط المدرجات وهو خط حاسوبي مرادف لـ (خط النسخ) وتكون متراكبة فوق بعض، (رضي) اولا، ثم أعلى منها لفظ الجلالة (الله عنها).

ولهاتين الطريقتين عيب يظهر في قراءة (رضي الله عنها ) كما في حديث أم هانئ، إلى قراءتها (رضي الله عنهما ) لأن القارئ انطبع في ذهنه صيغة الاثنين (ام هانئ فاختة بنت ابي طالب) ولم ينتبه إلى أنها ( رضي الله عنها ) وليست (رضي الله عنهما )، وهذا يكون صحيحا في مواضع وغير صحيح في مواضع أخرى مثل هذا الحديث وفي تقديري أنه يرجع إلى سببين:

أولا: من يستغرق في قراءة الكتاب ربما لا ينتبه إلى أنها (رضي الله عنها ) وليست(رضي الله عنهما ) بسبب من طريقة كتابة الجملة في صورة متراكبة هكذا. وهي لا تسمح بتدقيق النظر الكامل فيها كما حدث لمحدثنا.

ثانيا: تفرد كتابة لفظة (رضي الله عنه ) و (رضي الله عنها ) و (رضي الله عنهما ) باللون الأحمر الفاتح أيضا من شأنه أن يوحي أنها صورة لجملة واحدة، فتكون مثلا (رضي الله عنه ) في سائر الكتاب او تكون (رضي الله عنهما ) في سائر الكتاب

دون ان تعطي للقارئ مهلة للتدقيق أو التمعن الفاحص للجملة .

وكان الأسلم في تقديري أن تكون كتابة كل متن الكتاب بلون واحد هو اللون الأسود ، وان تكون الكلمات متراصة في خط واحد بدلا من تراكبها فوق بعض في (رضي الله عنه) و (عنها ) و (عنهما ) و (عنهم ) فهذا أدعى للقراءة الصحيحة وعدم الوقوع في الخطأ والله أسال ان يزيدينا علما وتقى، وأن ينفعنا بما علمنا ، والله تعالى اعلم وأحكم .

## ما بين أكتوبر 1973 وأكتوبر 2023

من الأفعال التي تستحق الثناء في حالات الحرب والتي تحقق دائما نتائج مبهرة في مصلحة الدولة، هي معرفة حدود القوة الراهنة والعمل من ثم على إكمال الفراغ والنقص الموجود فيها بكل السبل والوسائل المتاحة، ثم الانطلاق وتسديد ضربة البداية، وبمعنى آخر؛ التخطيط المتكامل للحرب يمكن الدولة ليس من خوض الحرب بثقة وإحتراف وحسب، بل تحقيق الانتصار في زمن وجيز مالم تختل معادلة القوة والتخطيط المتكامل، وهذا ما حدث بالفعل في الأكتوبرين أكتوبر مصر 1973 وأكتوبر حماس2023.

ولأن الحرب تعتمد على الخداع والخداع الإستراتيجي بمكان، وإختيار التوقيت المناسب لتنفيذ ضربة البداية، فإن ذلك لا يضمن مباغتة العدو والنيل منه والتمكن من إصابته بالشلل التام وحسب، لكن تحقيق ميزة هامة وهي إفقاده الاتزان وعدم السيطرة على أركانه تماما، لذا فقد كانت الضربة الأولى التي وجهتها حركة المقاومة (حماس) مع كثافة النيران التي اطلقتها، كفيلة بتحقيق المباغتة التامة وإصابة إسرائيل بالعجز التام في توقيت إستراتيجي بكل المعايير، لأن الولايات المتحدة حليف إسرائيل الأول والأساسي كان مشغولا حتى النخاع ولا يزال في الحرب الروسية الأوكرانية، والتي عبثا تحاول فيها الولايات المتحدة مع دول الناتو تحقيق السيطرة على الأرض، مما مكن ذلك الانشغال حركة المقاومة الفلسطينية لاغتنام الفرصة، وتنفيذ الضربات الابتدائية الأولى التي من شأنها تحديد مسار وترجيح كفة الحرب.

وليس بعيدا عن الأذهان تدقيق الرئيس الراحل " انور السادات" في عملية الخداع الإستراتيجي وتحديد ساعة الصفر بما يخدم حرب أكتوبر التي خاضتها مصر في 1973، فقد كان قراره أولا بطرد الخبراء السوفيات من مصر في ذلك الوقت ما ساعد في عملية الخداع الإستراتيجي لبداية الحرب، فقد تم تفسيره خاصة من قبل صناع القرار في إسرائيل بأنه قرار بعدم الحرب، وأن مصر غير مقبلة على الحرب مرة أخرى بعد هزيمتها في 67، وعندما كان التفكير الإسرائيلي يذهب في هذا الإتجاه المطمئن فجر "السادات" مفاجأة أخرى، فقد استدعى وزير الحربية وابلغه أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة ويخطره بقرار الحرب ابتداء من يوم 15 نوفمبر 1972، وإمعانا في تأكيد الخدعة الإستراتيجية طلب من نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في ذلك الوقت أن يعد الجبهة الداخلية ويسد جميع الثغرات فيها.

مع ذلك فقد كان إختيار "السادات" ل- يوم 15 نوفمبر 1972 لتكون القوات المسلحة في وضع تأهب كامل اختيارا استراتيجيا ، الهدف منه أن يعطي الرئيس الأمريكي المنتخب مهلة لمحاولة حل النزاع سلميا ، لأن الانتخابات الرئاسية الأمريكية ستتم في الايام الأولى من نوفمبر 1972 ، فاذا لم يتم ذلك تكون مصر في كامل جاهزيتها لبدء الحرب، وكان ذلك أول تحديد لميقات الحرب المرتقبة .

وفي اجتماع ل- "السادات" مع "حافظ الأسد " ذكر أن الحرب ستبدأ في مايو 1973، لم يكن السادات ينوي دخول الحرب حقيقة في مايو 1973 لكن باعتبار ذلك نوع من الخداع الإستراتيجي الذي كان يتم على مراحل، وتم تسريب الخبر في الصحف المحلية وقتها ، وصدق الإسرائيليون ذلك بالفعل وحشدوا جيوشهم ودباباتهم ، وفي اغسطس 1973 أشاع السادات للمرة الثالثة أن الحرب في اغسطس1973 ، وكان رد الفعل

في إسرائيل إزاء كل تلك المواقيت المتجددة والمتعاقبة هو إعلان التعبئة العامة في كل مرة، وعندما سئل "موشي ديان" بعد الحرب لماذا لم يعلن التعبئة في أكتوبر، قال: إن "السادات" قد دفعني إلى هذا مرتين مما كلفني في كل مرة عشرة ملايين دولار دون جدوى، فلما جاءت المرة الثالثة ظننت أنه غير جاد مثلما حدث في المرتين السابقتين، لكن خيب ظني.

ولأن إسرائيل قامت على أساس تجييش الشعب بكامله، بما يجعلها في حالة استعداد دائم ضد أي عدوان محتمل من الداخل الفلسطيني الذي اغتصبت أرضه، أو من الدول العربية المتاخمة والمجاورة، ولأنها اهتمت بتطوير الأسلحة والآليات العسكرية، فقد كان من الطبيعي ان تكون الحاجة ملحة إلى فعل موازي لذلك التطور العسكري والأمني الإسرائيلي من جانب فصائل المقاومة الفلسطينية، وبالفعل فقد زادت المقاومة الفلسطينية من مقدرتها

العسكرية إلى الحد الذي مكنها من رشق إسرائيل بآلاف الصواريخ في وقت وجيز وبكثافة عالية (نحو خمسة ألف صاروخ في الضربة الأولى) مما شكل بدوره إرباكا وعجزا في مراكز القيادة الإسرائيلية، وهو ما دفع الولايات المتحدة أن ترسل إلى المتوسط حاملة الطائرات (جيرالد فورد) ولاحقا (يو إس إس آيزنهاور) لملاحقة الموقف الإسرائيلي المتدهور، ومما اضطر البنتاغون إلى نشر نحو 12 نظام للدفاع الجوي في المنطقة، بما في ذلك للقوات العاملة في العراق وسوريا والكويت والأردن والسعودية والإمارات لحمايتها من الصواريخ والقذائف.

وفي أكتوبر 1973 كان التحدي أمام القوات المسلحة المصرية ماثلا في تحييد الطيران الإسرائيلي وكيفية اختراق الحاجز الترابي الذي يبلغ في بعض مواقعه 17 مترا، إلا أن التخطيط المحكم للخطة الدفاعية والهجومية التي وضعتها القوات المسلحة المصرية كان

قد وضع حلولا لهاتين المعضلتين، وفي الوقت الذي كان فيه الطيران المصري ينطلق عند ساعة الصفر لرجم العدو ومراكز القيادة ومراكز ادارة الطيران الحربي، عبرت القوات المصرية المفعمة بالعواطف الجياشة القناة ودخلت على الحاجز الترابي، واستطاعوا اختراقه وتسلقه باستخدام سلم من الحبال، ثم يتسلق الجندي الحاجز الترابي وعندما يبلغ القمة يلقي السلم لبقية القوات.

وفي لحظات كانت القوات المصرية تستولي على المواقع الإسرائيلية خلف الساتر الترابي على الضفة الشرقية، وبعد عبور الدفعات الأولى من القوات المصرية تم احتلال المواقع التي أعدها الإسرائيليون لإعاقة العبور، وبدأ المهندسون في تطبيق نظرية شق الحاجز الترابي بخراطيم المياه المكثف، وقد قام بهذه الفكرة سلاح المهندسين المصري فقد طلب من ألمانيا صنع مضخات ذات ضغط عالي وكان الألمان يسخرون من ذلك ويتسألون: هل هناك حريق

في العالم كله يحتاج إلى كل هذه القوة؟ وبقوة دفع الماء تم إختراق الحاجز الرملي وفتحت الثغرات وعبرت الدبابات المصرية.

ولأن تنفيذ الضربة الأولى بنجاح كامل هو المحدد لسير المعركة في إتجاه الانتصار ورفع الحالة المعنوية للجنود، فقد كانت إسرائيل وعلى مدى سبعة عقود من الزمان سباقة في الضربات الأولى الاستباقية المباغتة، ليس في الداخل الفلسطيني وحسب بل تعدى ذلك إلى تنفيذ عمليات عسكرية في الخارج، مثل العراق وإيران ومصر، في عمليات محدودة لتدمير وتخريب الأهداف الخارجية التي تشكل خطرا وجوديا عليها، ليست الأهداف العسكرية والنووية وحسب، بل استهداف وتصفية القادة والعلماء في الداخل والخارج أيضا.

ولأن اعتماد دولة الاحتلال على سلاح الطيران المتطور بشكل كامل يحقق لها السيطرة الكاملة ضد أي مهدد أمني

وعسكري، لذا فقد كانت صواريخ حركة المقاومة (حماس) التي انطلقت في أكتوبر 2023 بكثافة في العمق الإسرائيلي إضافة للمسيرات الفلسطينية من نوع الزواري (مسيرات الزواري هي مسيرات قام بصنعها وتطويرها المهندس التونسي "محمد الزواري" الذي اغتالته عناصر الموساد في تونس عام 2016 ، وقد تمكن "الزواري" من تطوير المسيرات وانتاج ثلاثة أجيال منها ، مسيرة ابابيل (إيه) للمهام الاستطلاعية ، وأبابيل (بي) للمهام الهجومية والقذف، وطراز أبابيل (سي) للمهام الهجومية الانتحارية ، وتتميز هذه المسيرات بخفة وزنها وعدم تمكن الرادارات من رصدها بسهولة ، وتستخدم في العمليات القتالية المباشرة، ولها القدرة على إصابة المنشآت والأهداف بدقة عالية) كانت الصواريخ الكثيفة والمسيرات كفيلة بارباك مراكز القيادة والتحكم الإسرائيلية .

وبعد أن نفذت كتائب القسام هجوما متزامنا على أكثر من خمسين موقعا عسكريا إسرائيليا في إستراتيجية جديدة تقوم على تعدد الجبهات، وبعد أن أسرت العشرات من الضباط والجنود الإسرائيليين وتعطل حركة الملاحة الجوية في مطار بن غوريون نتيجة الهجوم واستهداف مقاتلات "إف-16" الإسرائيلية بصواريخ أرض-جو من طراز "متبر 3" الفلسطينية، صرح نتنياهو بتأزم موقف إسرائيل: نحن في حالة حرب.. حماس شنت هجوما قاتلا مفاجئا ضد دولة إسرائيل.

في 6 أكتوبر 1973 وفي الساعة الثانية تماما، هدرت الطائرات المصرية وعددها 222 طائرة سرعتها فوق سرعة الصوت، تنفذ الضربة الأولى الإستباقية بقيادة "حسني مبارك" في زمن وجيز بكل المقاييس وعلى إرتفاع منخفض، وحققت نتائج فاقت التسعين في المائة وبخسائر لا تزيد عن اثنين بالمائة، وهو ما كان مربكا لتقديرات الإتحاد السوفياتي في ذلك الوقت الذي

كان يدعي أن ضربة الطيران الأولى سوف تكلف سلاح الطيران المصري على احسن الفروض 40٪ من قوته، ولن تحقق نتائج اكثر من 30٪.، إلا انه بعد بعد عشرين دقيقة فقط من ساعة الصفر كانت الطائرات المصرية قد ضربت مراكز القيادة ومراكز إدارة الطيران ومراكز إدارة الدفاع الجوي، وفقدت إسرائيل توازنها بالكامل بعد ان تمكنت القوات المصرية من تحييد الطيران الإسرائيلي ليس للأربعة وعشرين ساعة الأولى بل لأكثر من أربعة أيام كاملة.

وعقب ضربة الطيران المباركة بدأت المدفعية المصرية تتكلم وتضرب الأهداف الإسرائيلية، وانطلقت قذائف اكثر من ألفي مدفع لتقصف أهدافها بدقة متناهية، وبمرور ثلاثة أيام فقط من بداية المعركة فقدت إسرائيل اكثر من ثلث سلاحها الجوي على الجبهتين المصرية والسورية وخيرة الطيارين المدربين، وبذلك إنتهت خرافة سلاح الطيران الإسرائيلي.

المجد والخلود ل-شهداء وأبطال اكتوبر المجيد 1973 وأكتوبر المجيد 2023 الذين سطروا في سجلات التاريخ أروع الملاحم والبطولات العسكرية، وأثبتوا للعالم بأجمعه زيف أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يهزم، وأنه لا يوجد في الوجود شيء اسمه المستحيل.

## الواقع الجديد المحتمل

قدمت حركة المقاومة (حماس) في حرب طوفان الأقصى دروسا عديدة لكل الأنظمة والشعوب في المجتمع الدولي في الاعتماد على الله ثم الاعتماد على النفس في كل خطوات الحرب، بدءا بتجهيز وتطوير القوة الصلبة، ثم التخطيط المحكم وتسديد ضربة البداية ضد العدو الذي تسوقه الأوهام والأساطير والضلالات، وتسانده قوى الشر والظلام.

مع هذا فإنه بوسع أي مراقب منصف لهذه الحرب وتطوراتها ومآلاتها، أن يرجع محاولات إسرائيل البربرية لإجتثاث حركة المقاومة (حماس)، بما فيها من أساليب التصفية والتطهير العرقي والوحشية التي تمارسها بكل عنف وغشم،

أن يرجع ذلك ليس إلى حجم القوة الكبير الذي تستند اليه إسرائيل، والأمان الذي ترتكز عليه في عدم ملاحقتها جنائيا وقانونيا من منظمات وهئيات المجتمع الدولي، لكن يرجع ذلك إلى العقيدة الخربة المنطبعة في أذهان ووجدان الإسرائيليين، وعلى رأسها بناء هيكل سليمان بعد هدم المسجد الأقصى، إضافة لإعتقادهم أنهم شعب الله المختار !

وعلى مدى تاريخ دولة الاحتلال الدموي، لم تدخر إسرائيل وسعا في تصفية وإسكات المقاومة الفلسطينية بكل ما أوتيت من قوة ووسائل، فلاحقت قادتها وعلمائها، وقتلت شبابها وأشياخها، ودمرت البنية التحتية وتوسعت في بناء المستوطنات اليهودية، ومارست سياسة الفصل العنصري بحق الفلسطينيين، وهي سياسات وحرب نفسية في المقام الأول، الغرض منها خنق روح المقاومة، وتبديد الانتماء للأرض وتبديد القضية الفلسطينية، بيد أنها لم تنجح أو تتقدم في ذلك قيد أنملة،

فقد زادت الروح القتالية لدى الأجيال الجديدة أضعافا مضاعفة وبتوقد أكثر من ذي قبل، في الوقت الذي ذوت أو بدأت تذوي فيه روح المصادمة والقتال عند الجيل الجديد في الوسط الإسرائيلي.

ولأن الغزاويين لا يقبلون التفريط في القضية الفلسطينية، شأنهم في ذلك شأن كل حر أبي تسرق أرضه وتنتهك المقدسات المباركة أمام ناظريه، فقد كان من الطبيعي أن تتحدى كتائب القسام وكافة الفصائل المسلحة الفلسطينية جيش الدفاع الإسرائيلي، وأن يختار المدنيون البقاء في ديارهم والقتال لآخر رمق وملاقاة الموت، بدلا من دعوات التهجير المتلاحقة التي تسوقها إليهم سلطات الاحتلال، أكثر من ذلك فقد إرتدت الغزاويات حجابهن استعدادا للموت مستورات في الأرض التي تقدم النفوس فداء لها، في بطولات نادرة.

إضافة لما سبق فإنه ليس تشبث إسرائيل وحده بالبقاء في فلسطين بدلا من الشتات الذي أتوا منه هو ما يدعو

إلى النظر الفاحص والاستنكار والاستهجان، لكن ما يدعو إلى محاولة تقديم أجوبة ونظرة أكثر تفحصا ايضا، هو تهافت الدول الغربية والولايات المتحدة على إزهاق حركة المقاومة (حماس) والقضية الفلسطينية العادلة عن يد واحدة وقلب واحد، وأكثر ما تقدمه هذه الدول مجتمعة، هو الأسطوانة المشروخة المتكررة (حق الدفاع عن النفس) حتى وإن تجاوز ذلك الحق الباطل ليس الدفاع عن النفس وحسب، لكن إزهاق الأبرياء والاسراف في القتل، لدرجات ترقى إلى التطهير العرقي والإبادة الجماعية، وإفناء (حماس) والغزاويين وكل فلسطيني حر على أرض الأنبياء فلسطين الحبيبة.

ليس بمقدورنا حقيقة أن نعرف الثمن والمقابل السخي الذي قبضته هذه الدول، مثل فرنسا والمانيا وإيطاليا وبريطانيا نظير مواقفها المتخاذلة والجبانة تجاه القضية الفلسطينية، لكن من حقنا أن نعرف لماذا لا يعتبر

حق الدفاع عن النفس في الجانب الفلسطيني صاحب الأرض المسروقة حقا اصيلا شرعيا تستحقه ؟ لماذا الصورة الطبيعية عند دول الغرب مقلوبة رأسا على عقب ؟ فيعاقب ويجرم المظلوم ، وتتم تبرئة المحتل الدموي؟! لماذا تتغاضى الولايات المتحدة ودول الغرب عن الجرائم والفظائع التي ارتكبتها إسرائيل بحق الفلسطينيين منذ إعلان تأسيس "الدولة" اليهودية عام 1948

إن الذي يدافع عن النفس والأرض والعرض والمقدسات هي فلسطين، فلماذا نمنع منها هذا الحق الأصيل وتعطيه دول الغرب ل-إسرائيل المعتدية المحتلة ؟ لماذا اضطهد اسلافكم في بريطانيا عام 1298 اليهود ، وأمر الملك "إدوارد الأول" بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية ، وفتك البريطانيون باليهود وقتها فتكا ذريعا ؟ ولماذا نكل بهم الملك "لويس التاسع" في فرنسا وتم طردهم منها عام 1321 وعام 1582 ؟ ولماذا حاربهم باباوات الكنيسة

الكاثوليكية في إيطاليا وقتلهم الإيطاليون في عام 1540 ، وطردوهم خارج حدود إيطاليا ؟ ولماذا عذبهم وشردهم وبشع بهم وحرقهم "هتلر" ابتداء من توليه الحكم في المانيا 1933 إلى 1945؟ لماذا تفضل وتختار تلك الدول في الوقت الحاضر إزدواجية المعايير، وترضى بوصم العار على تاريخ أوربا الحضاري الضارب ؟

مع هذا فإن تصريح مسؤول السياسة الخارجية في الإتحاد الأوروبي "جوزيف بوريل" الأخير، كان يؤكد هذه الازدواجية المثيرة للحيرة ، فقد قال إنه أصيب ب-الفزع بعد اطلاعه على العدد الكبير لضحايا القصف الإسرائيلي للمدنيين في قطاع غزة ومخيم جباليا ، إلا أنه وفي تناقض ظاهر كان يؤكد على حق إسرائيل في الدفاع عن النفس، وحتمية تطبيق قوانين الحرب والإنسانية، وإيصال المساعدات، وبتصريحه جمع كل المتناقضات والازدواجيات في جملة واحدة ما بين الفزع والحزن على ضحايا

العدوان الإسرائيلي فى قطاع غزة وضرورة ايصال المساعدات الإنسانية، ومناصرة المعتدي الهمجي في ذات الوقت!

لم يكتفي "بوريل" وأقرانه في الدول الغربية والوازنة في أوروبا فقط بالتأييد المطلق وغير المشروط والدعم السياسي ل-إسرائيل التي تمارس إرهاب الدولة بل تعدى ذلك إلى تقديم الدعم المادي والعسكري، المتمثل في شحن كميات ضخمة من الأسلحة والذخائر للشواطئ الإسرائيلية، وهذا ما يستوجب إعادة النظر في العلاقات مع هذه الدول على مواقفها الخائبة، ما هو الثمن والمقابل مهما كان حجمه الذي ينزع من النفس البشرية معاني الحق والعدل وينفي أي وجود لهما ويعترف بأن الكون هو الشر والشيطان والدماء ولا رابع لهم ؟!

ورغم أن معنى حق الدفاع عن النفس هو مبدأ أصيل في قوانين ومواد هيئة الأمم المتحدة وفقا لنص المادة 51 من الميثاق، إلا أنها كلمة حق اريد بها

باطل في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ولا شيء أسهل لهذه الدول المتواطئة من لي اعناق النصوص وتطويعها على النحو الذي تحقق به أغراض الدفاع عن إسرائيل وحمايتها ووجودها، لذا فإنه لأجل هذه الغايات والأهداف تطوع إسرائيل جميع هذه الدول مع ما تتشدق به ظاهريا هذه الدول من حماية حقوق الانسان وصيانتها وأمن الإنسانية والعدل، تطوعها إلى خدمة أمن إسرائيل في كل الأحوال، وتنشط في ذلك جماعات الضغط واللوبيات الصهيونية المنتشرة داخل الدول الغربية، لتؤدي رسالتها المسنودة إليها بكل اخلاص وصدق في شرعنة وقانونية الاحتلال، وحق إسرائيل في الدفاع عن النفس وهجومها الباطش على النفس المظلومة في فلسطين. هنا تفقد النفس البشرية طبيعتها وجبلتها التي خلقها الله عليها لتصبح كل هذه الدول ذئابا في خلقة بشر.

ورغم أن إسرائيل أولت اهتماما كبيرا بضرورة التخلص من حماس نهائيا وإستئصالها وإفنائها، استنادا على قوتها العسكرية والغطاء السياسي الذي توفره لها الدول منزوعة الإنسانية والضمير، في عملية السيوف الحديدية التي أجمعت عليها حكومة الحرب الإسرائيلية ، هذا الإهتمام يقابله إهتمام آخر بنفس القدر وربما بقدر أكبر في الجانب الفلسطيني في تحدي ومواجهة إسرائيل وتمريغ أنفها في الوحل.

لذا فإن الترجيح وكسب الحرب هنا يكون مرده لقوة الإرادة عند كلا الطرفين بغض النظر عن حجم القوة العسكرية، لأن القوة العسكرية وحجم التسليح مهما كان متعاظما ، فإنه يصبح بلا قيمة أو جدوى إذا صادف (كما حدث بالفعل في هذه الحرب) إرادة ضعيفة ومهزوزة، ولا يساورني شك في أنها مكنت الطرف الفلسطيني من توجيه الضربة الأولى بنجاح تام وإيقاع خسائر كبيرة في صفوف

جيش الدفاع الاسرائيلي وقتل المئات من الضباط والجنود وإقتياد العشرات من الأسرى.

ولأن الإرادة القتالية عند الطرف الإسرائيلي فيما اتصور مهزوزة وناقصة خاصة في هذا العقد الثامن من عمر الاحتلال، رغم تطور التقنية العسكرية الإسرائيلية ووقوف الولايات المتحدة ودول الغرب معها في خندق واحد بعد شراء الذمم والضمير الإنساني، ولأن الاقتصاد الإسرائيلي لا يستطيع تحمل تبعات الحرب في ظل ما جرى من حالة التعبئة الإسرائيلية الكاملة الحالية، إذا صمدت فصائل المقاومة المسلحة الفلسطينية أكثر من ذلك، وفي ظل المعطيات والتقارير التي تشير إلى قابلية صمودها لعدة أشهر أخرى، لذا فإنه من الراجح أن يزيد إحتمال اتساع رقعة الحرب الى المستوى الإقليمي، ويتزايد هذا الإحتمال بدرجة كبيرة في ظل الهزائم التي تتلقاها دولة الاحتلال

في الحرب البرية، وهو ما يحذر منه الطرف الأمريكي والإسرائيلي على السواء.

ولأن هذه الفرضية تتزايد مع مرور الأيام فإن الوضع يصبح أشد ارتباكا وتعقيدا للطرف الإسرائيلي إذا ما دخل على خط المواجهة دولة صديقة أو دولة عربية بعد تصحيح وترتيب الأوراق داخلها من جديد في تطور مفاجئ وغير متوقع، في تقديري ذلك من شأنه أن يخلق واقعا جديدا، قطعا ليس مثل ما كانت عليه فلسطين قبل يوم السابع من أكتوبر/تشرين الأول 2023

## وقفات وتأملات مع كلمات جامعة ل- "عبد الله بن المبارك"

بعض الناس لديهم المقدرة على جمع المعاني الكثيرة في كلمات قليلة فلا يسهب أو يسرف في الحديث، لكنه يوجز كلامه في كلمات قليلة جامعة، وهي خاصية ليس في مقدور أي فرد أن يتمكنها أو يتقنها. "عبد الله بن المبارك المروزي" (118 هـ-181 هـ) هو واحد من هولاء، وهو عالم وإمام مجاهد وأحد الفقهاء الأعلام.

وقبل أن أذكر هنا جزءا من المعاني المتعددة في كلمات " ابن المبارك " القليلة مما جمعه "الذهبي" في سير أعلام النبلاء، فإنه ينبغي ان أشير أولا

إلى أن الكلمات الجامعة هي من الخصائص التي اختص الله بها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي". [1]

وفي كلمات " ابن المبارك " ( رحمه الله ) مما جمعه الإمام الذهبي قال شقيق البلخي : قيل لابن المبارك : إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا ؟ قال : أجلس مع الصحابة والتابعين ، أنظر في كتبهم وآثارهم ، فما أصنع معكم ؟ أنتم تغتابون الناس. [2]

لأول وهلة تبدو هذه الإجابة شديدة الإيجاز والاختصار، إلا أنها مع ذلك تنطوي على معان كثيرة كامنة ربما لا تكون واضحة تماما إلا بعد إدامة النظر فيها، ويمكن تفصيل جزء منها على النحو الآتي:

أولا: الصحبة المباركة والحب في الله

السؤال عن الأصحاب والاخوان وتفقدهم يعكس معنى الإهتمام ويشتمل على معان عظيمة الأهمية بقدر ما هي معان كريمة، فهو يعطي مفهوم المحبة بمعناها الجامع الشامل وهو الحب في الله، قال الله جل وعز: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) [آل عمران: 103].

ثانيا: الإخاء في الله وشيم المؤمنين

تفقد الأصحاب والاخوان والسؤال عنهم هو ايضا شيمة وخلق من أخلاق المؤمنين، لأن رباط الإيمان والإسلام يعتبر من أقوى الروابط ويحقق معاني الإخاء الكامل، قال الله جل وعز: ( إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم وأتقوا الله لعلكم ترحمون ) [الحجرات:10] وقال رسول الله صلىاللهعليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في

حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة" .[3]

ثالثا: رباط الإيمان والإخاء في الله من أقوى الروابط بين الناس

صيغة السؤال (لم لا تجلس معنا ؟) فيها أن السائل هو فرد من مجموعة، وهذه المجموعة مترابطة فيما بينها متحابون بينهم بل إن الحب ليتعداهم إلى الآخرين، لذا سألوا عن ابتعاده عنهم، وإذا رأو أن هناك فردا تجتمع فيه صفات الخير والإيمان أحبوا أن ينضم إليهم، ويسألوا عن سبب ابتعاده إذا غاب عنهم.

رابعا: الرغبة في الخير للآخرين من صفات المؤمنين

اضافة لما سبق من هذه القيم الكريمة والخصال الحميدة فإنه يستشف رغبتهم في الخير لكل الناس، وهذا هو الإيمان الكامل والمعية المباركة؛ يحبون للخير أن يعم وللفائدة ان تنتشر

فينالها القريب والبعيد ، وفي هذا معنى الإيثار وتخصيص الغير بالخير العام، لا أنانية ولا إثرة وبهذه المعاني يشترك الكل في ما فيه الخير والصلاح. قال الله جل وعز: (والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [الحشر: 9].

خامسا: اجابة اشتملت على الايجاز والفصاحة

أما اجابة " ابن المبارك " (رحمه الله) فإن أول ما يلفت النظر فيها هو أنها اجابة مختصرة وجامعة للكثير من المعاني، وفيها فصاحة بليغة دلت على المعنى بعبارات بسيطة ومقنعة، وهذه ميزة حسنة لأن الكلام اذا طال اختل واذا اختل اعتل.

سادسا: اهتمامه بأشرف العلوم

ذكر " ابن المبارك " (رحمه الله) في إجابته ان السبب هو مجالسة الصحابة والتابعين والنظر في كتبهم وآثارهم، وهذا يحتاج إلى تفصيل وبيان في معناه الجامع الشامل، فقد كان يعتني بسند الحديث ورجاله وقد قال في كتابه الزهد والرقائق: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء). [4]

ولأهميته الكبيرة ألف علماء الإسلام في رجال الاسناد المجلدات الكثيرة، والجرح والتعديل هو باب عظيم في علم الحديث وشديد الأهمية؛ فهو الذي يعتنى بالرجال الناقلين لحديث النبي صلى الله عليه وسلم والآثار والأخبار، والنظر في شرائط قبولهم، وأسباب ردهم، فما استوفى من الأسانيد شروط الصحة حكم بقبوله، وما كان فيه سبب أو أكثر من أسباب الرد رد. وهذا الضرب من العلوم هو من العلوم الهامة التي تهتم بحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح قال الله جل وعز (ومن

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر: 9].

سابعا: آثاره من مداومة النظر في كتب السنة

ومداومة النظر في كتبهم وآثارهم هي صحبة الغرض منها العلم والعمل بصحيح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع هذا من فوائد هذه الصحبة ايضا ان "ابن المبارك" كتب كتابه الجهاد وكتاب الزهد والرقائق في ستة عشر جزءا، وهو من أجل ما صنف في هذا الباب بالرغم من احتوائه كما قال "ابن تيمية" على العديد من الأحاديث الواهية.

ثامنا: الإهتمام بطلب العلم النافع أو الحظ الوافر

اجابته ايضا فيها الحث على لطلب العلم النافع وهو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رواه الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومن التابعين، قال الله جل وعز: (ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من

عباده العلماء ان الله عزيز غفور ) [فاطر: 28] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر . [5]

تاسعا: الإهتمام بالاستفادة من الوقت

كان يوجه بعبارته الفصيحة النصح في الاستفادة من الوقت فيما يحب الله ويرضى، حتى تكون حياة الفرد كلها لله، قال الله تعالى : (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ) [الانعام: 162] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره؛ فيم أفناه؟ وعن علمه؛

فيم فعل فيه؟ وعن ماله؛ من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه؛ فيم أبلاه؟". [6]

عاشرا: التذكير بالابتعاد من الغيبة

ولأن الجماعات من الناس إذا التقوا ربما يكثر الحديث والثرثرة، وربما يقعون في الغيبة والنميمة، وهما من كبائر الذنوب لذا فقد كان من الطبيعي أن يذكر من الوقوع في ذلك، قال الله تعالى: ( يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم [الحجرات: 12] ، وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته". [7]

ختاما فإن " ابن المبارك" الذي قال عنه يحيى بن معين: كان عبد الله بن المبارك (رحمه الله) كيسا، مستثبتا، ثقة، وكان عالما، صحيح الحديث، وكانت كتبه التي يحدث بها عشرين ألف حديث، أو واحدا وعشرين ألف حديث. [8] كانت له كلمات شبيهة بهذه الكلمات القليلة التي راجعناها، فقد قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؟! [9] والمعنى يقترب من المعنى في الكلمات الأولى، فقد خلص الرجل جل وقته لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

**المصادر:**

[1]_أخرجه: البخاري (7013)، واللفظ له، ومسلم (523).

[2]_شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير اعلام النبلاء،ج 8 ص 398

[3]_أخرجه البخاري (2442).

[4]_عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق أحمد فريد، الزهد والرقائق،(الرياض: دار المعراج الدولية، ط. 1995،1)

[5]_أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له.

[6]_ شعيب الأرناؤوط، تخريج سير أعلام النبلاء،ج-9 ص . 316

[7]_ أخرجه مسلم (2589).

[8]_تاريخ دمشق لابن عساكر جـ 32 ص. 431.

[9]_ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ 11 ص. 388.

## غلطة " سويلا بريفرمان "

أقال رئيس الوزراء البريطاني " ريشي سوناك " وزيرة الداخلية " سويلا بريفرمان" من منصبها وعين "جيمس كليفرلي " وزيرا للداخلية خلفا لها في تعديلات وزارية جرت مؤخرا، وتزامنت مع نشر التايمز مقالا ل-" سويلا بريفرمان " تناولت فيه المظاهرات المؤيدة للقضية الفلسطينية، والمنددة بالحرب البربرية التي تقودها إسرائيل على قطاع غزة، في ذكرى إحياء الهدنة في الحرب العالمية الأولى، وكالت " سويلا بريفرمان" في المقال ألفاظا ونعوتا قاسية للمتظاهرين، واتهاما مباشرا لشرطة لندن، رغم توصيات مكتب رئيس الوزراء بإجراء تعديلات على المقال قبل نشره إلا أنه تم تجاوزها.

"سويلا بريفرمان" (واسمها الحقيقي "سو إيلين كاسيانا") هي محامية وسياسية بريطانية من أصول هندية وتعتنق الديانة البوذية، تم تعيينها في منصب وزير العدل بعد انتخاب "بوريس جونسون" زعيما لحزب المحافظين، وفي سبتمبر/أيلول 2022 تسلمت "سويلا بريفرمان" منصب وزيرة الداخلية، إلا أنها وقتذاك فجرت صراعا مكتوما مع رئيس الوزراء في موضوع الهجرة الموضوع الرئيسي الأول لمعظم دول القارة الأوروبية، وفعلت لوحدها خطة مغايرة لخطة الحكومة، لذا فقد قدمت استقالتها في أقل من شهرين من توليها وزارة الداخلية، وعادت مرة أخرى بعد ايام من هذه الاستقالة في ظل حكومة "ليز تراس".

ولأن التهور المتمثل في مخالفتها ل- مبدأ المسؤولية الجماعية الحكومية فضلا عن تضامنها الكامل مع إسرائيل كان ملازما لها، وربما الاندفاع والطموح لكسب ثقة المحافظين؛ فقد ارتكبت في

واقع الأمر غلطة عمرها بعد أن كتبت مقالا ل–صحيفة التايمز عن المسيرة المؤيدة للفلسطينيين متهمة فيه الشرطة بالتحيز للجانب الفلسطيني، وهو ما دفع " ريشي سوناك" إلى كسر جموحها وإقالتها من منصبها .

في مقالها، كانت تعتبر المسيرة ترتبط ارتباطا وثيقا مع حركة المقاومة الفلسطينية (حماس)، وهو اعتبار يؤكد صهيونيتها وتضامنها مع إسرائيل ومع زوجها يهودي الديانة، فقد قالت ما نصه: لا أعتقد أن هذه المسيرات هي فقط صرخة مساعدة لغزة، بل هي تأكيد على التفوق من جماعات معينة، وبالتحديد إسلامية، من ذلك النوع الذي رأيناه في أيرلندا الشمالية، وأن بعض الجماعات المنظمة لمسيرة السبت لها علاقات مع منظمات إرهابية بمن فيها حماس.

وفي ذات السياق الداعم لتأجيج التوترات والتضامن مع إسرائيل فقد شككت في نزاهة الشرطة البريطانية، التي كانت مهمتها هي حفظ الأمن في

المسيرة الهادرة، بل أنها لم تتورع عن وصف المتظاهرين بأقسى الصفات والنعوت فقد وصفتهم بالرعاع والإرهابيين، وبالجملة فقد نجحت "سويلا " في إثارة أقصى قدر من الإساءة، وذكرت أن هناك انطباع متكون أن ضباط الشرطة البارزين يمارسون المحاباة عندما يتعلق الامر بالمتظاهرين، بل إن جماعات الأقليات ذات الروابط السياسية والمقربة من اليسار تحصل على معاملة أفضل من الضباط البارزين أكثر مما يحصل عليه المحتجون القوميون ومن اليمين المتطرف.

" يقابل المحتجون من القوميين واليمين المتطرف ممن شاركوا بعدوانية برد قاس، لكن الرعاع المؤيدين لفلسطين يظهرون نفس السلوك ويتم تجاهلهم ، حتى عندما يخرقون القانون بوضوح، وتحدثت مع ضباط حاليين وسابقين ممن لاحظوا هذه المعايير المزدوجة؛ وعبر مشجعو كرة القدم بصراحة عن الطريقة القاسية التي تتعامل فيها معهم الشرطة مقارنة مع

مجموعات صغيرة تدفعها السياسة في معسكر اليسار ".

وأضافت: ربما كان ضباط الشرطة خائفين من النقد الذي سيوجه إليهم أكثر من تنفير الأغلبية، وعلى الحكومة أن تتبنى وجهة نظر أوسع؛ لو مضت المسيرة، فإن الرأي العام يتوقع نهجا حاسما ونشطا من الشرطة تجاه أي مظهر للكراهية وخرق للشروط والفوضى.

مع هذا وفي أول رد فعل لتصرفات وزيرة الداخلية قالت " يوفيت كوبر " ، وزيرة الظل في حكومة العمال في تغريدة لها على منصة "إكس" : إن "سويلا بريفرمان" خارج السيطرة. ونتيجة لذلك وبعد أن اتهمها منتقدوها بتأجيج التوترات خلال أسابيع من التظاهرات المؤيدة للفلسطينيين والاحتجاجات المضادة في المملكة المتحدة ، أقالها "سوناك" من منصبها .

ولأن وزيرة الداخلية كانت تتهم الشرطة بازدواجية المعايير في التعامل مع التظاهرات المؤيدة

لفلسطين مقارنة مع تعاملها مع تظاهرات الأخرى، فقد كان من الطبيعي أن يحدث ذلك شرخا في منظومة السلطة الأمنية وتصدعا في حزب المحافظين بزعامة " سوناك "، وبدأ الأمر كما لو أن هناك حكومتان منفصلتان عن بعضهما في بريطانيا ؛ حكومة رئيس الوزراء "سوناك" من جهة، وحكومة الداخلية وتمثلها "سويلا بريفرمان" المحامية هندية الأصول من جهة ثانية.

من ناحية ثانية فقد بات الخوف من تصاعد التيار الإسلامي والنزعة الإسلامية في أوروبا، أو على الأقل الدعوات والتظاهرات الداعمة لقضايا المسلمين، مثل الحرب التي تضرمها إسرائيل في فلسطين، بات في دول الغرب سمة من سمات الدولة أو لازمة من خصوصياتها، لذا فقد وضعت نصوص القانون الأوروبي موادا تتيح لها مقابلة هذا التصاعد، فاستخدمت الشرطة في لندن البند 44 من قانون الإرهاب، الذي يتيح لها ايقاف وتفتيش أي فرد يشتبه به، ووصلت حالات الايقاف

والتفتيش إلى أرقام غير مسبوقة إذا علمنا أنه في الفترة ما بين 2004 إلى 2009 سجلت نحو مليون حالة اشتباه وتفتيش في بريطانيا.

نخلص مما سبق بنتيجة مفادها أنه رغم وجود تظاهرات ومسيرات في دول الغرب مؤيدة للقضية الفلسطينية في الصراع العربي الإسرائيلي، الذي يعتبر من أطول انواع الصراعات في العالم، ومنددة بالصوت العالي بالأساليب البربرية والهمجية التي تسلكها إسرائيل في قمع وتصفية الفلسطينيين وفصائل المقاومة الفلسطينية، فإن الأنظمة الحاكمة الغربية لا يبدو لها قرارا مستقلا نابعا من إراداتها، وأنها تدور مع الولايات المتحدة في ذات المسار الداعم والمؤيد لدولة الاحتلال وفي حقها (كما يزعمون) في الدفاع عن النفس، وهي من ثم حقيقة ليست وليدة اليوم أو جديدة نحتاج إلى تفكيكها ودراستها، لكنها ثابتة وقديمة منذ وعد بلفور المشؤوم.

مع هذا فإن قرار إقالة وزيرة الداخلية من المنظومة الحكومية هو قرار متأخر ، فقد كان أولى أن يتم من وقت سابق، في دولة إشتهرت في العقد الأخير بكثرة الاستقالات والإقالات خاصة في منصب رئيس الوزراء والحقائب الوزارية، بما يشبه أو يمثل حقيقة الفوضى الحكومية عموما في كافة أنحاء المملكة المتحدة ، وفي وقت كان يصنف البرلمان البريطاني من أقوى انواع البرلمانات ليس على مستوى بريطانيا وأوروبا فحسب بل على المستوى العالمي.

من ناحية ثانية تلقي إقالة وزيرة الداخلية الضوء على الكم الكبير من الاستقالات المتتالية ل-روساء الوزراء، ما يعني وجود نوع من عدم الاستقرار السياسي في بريطانيا ، فقد استقالت " تيريزا ماي" في اعقاب خروج بريطانيا من الإتحاد الأوروبي، ثم استقال " بوريس جونسون " في أعقاب فضائح جنسية طالت البرلمان البريطاني وحزب المحافظين ومقار الحكومة في داونينغ ستريت،

وأخيرا استقالت عن أقصر مدة رئاسية "ليز تراس" والتي تعتبر صاحبة أقل مدة رئاسية بعد الليدي "جين غراي" ملكة الأيام التسعة في تاريخ المملكة المتحدة، وها هي وزيرة الداخلية "سويلا بريفرمان" تقال من الوزارة بعد فترة قصيرة نتيجة ارتكابها غلطة قضت على طموحاتها ورغباتها الشخصية.

إنه ليس بمقدورنا تماما أن نرجح إذا ما كان هناك تبادل أدوار بين وزارة الداخلية ورئيس الوزراء البريطاني المؤيد كليهما ل- إسرائيل وفي حقها في الدفاع عن النفس، في مسرحية يعرض علينا البريطانيون شيئا من فصولها، أم أن هناك صراعا داخليا وتصدعا وتنازعا في القرار في بريطانيا، لكن بوسعنا ان نعترف أن الغرب لم ولن يكون يوما ما سندا للقضية الفلسطينية بعد أن إرتضى يكون تابعا للولايات المتحدة الأمريكية، حليف إسرائيل الرئيس والأساسي التي تقف خلفها بقوة وتدعمها بالأسلحة

المتطورة لقتل الشعب الفلسطيني، وإبادة فصائل المقاومة الإسلامية، التي ألحقت بها هزيمة أولية يصعب محوها من الأذهان.

ولأن وزيرة الداخلية البريطانية وصفت المتظاهرين المؤيدين لفلسطين والمطالبين بوقف إطلاق النار في قطاع غزة بالرعاع والإرهابيين، بل أنهم تربطهم علاقة وثيقة بحركة المقاومة حماس، فإنها قضت سريعا من منصبها، ولم تمهلها الأقدار لتتمكن من كل نزعاتها ورغباتها المنفردة، أظن أنها ربما تشابه في ذلك الليدي " جين غراي " ملكة الأيام التسعة، التي قضت تسعة أيام فقط ملكة لإنجلترا وإيرلندا، غير أن الملكة طلبت بنفسها من الجلاد أن يقطع رأسها سريعا، لأنها لم تمهلها الأقدار ايضا تنفيذ رغباتها وإدارة بلادها، ومما جاء في التاريخ الإنجليزي، إن الملكة " جين غراي " قد مضت إلى مصيرها تواجهه بشجاعة وثبات يوم الإعدام وأنها عصبت عينيها

بمنديل، ثم تلت آيات من الإنجيل، وكانت آخر كلماتها موجهة إلى الجلاد قبل أن تقطع المقصلة رأسها: "أرجوك نفذ الحكم بسرعة".

## مثل شجر الحراز

يعتبر المشهد العملياتي السوداني في حروب الكرامة، التي يقاتل فيها الجيش السوداني الوطني قوات الدعم السريع المتمردة ابتداء من 15 ابريل /نيسان 2023، من أعقد المشاهد وأصعبها على مدى تاريخ السودان الحديث، لأن الطرف الأول يقاتل ليس الطرف الثاني وحده وحسب، لكن أطرافا أخرى عديدة، في آن واحد، وهو ما يستلزم بطبيعة الحال جهدا أكبر لدفع ومناجزة كل هذه الأطراف التي تتستر خلف مظلة قوات الدعم السريع، أو ما يعرف حروبا بالوكالة، وثانيا لأن الطرف الثاني توغل في الأحياء المدنية والسكنية توغلا كاملا، واتخذ من المدنيين دروعا بشرية، بعد تدمير

معسكراته الثلاثة عشر تدميرا تاما في الضربة الأولى، مما يتعذر معه للطرف الأول تحديد غريمه بسهولة ويسر، ويحاول قدر المستطاع تجنب وقوع ضحايا مدنيين نتيجة لذلك.

هذه المقدمة ضرورية للمساعدة في فهم وتفكيك المشهد العملياتي بين الطرفين، الذي لم تنتهي فصوله بعد مضي ثمانية أشهر من اندلاع الحرب، التي وقعت نتيجة لدخول البلاد في حالة الانسداد السياسي وعدم التوافق بين النخب السياسية، فضلا عن الكم الكبير من الانقسامات والتشظي الذي اعتراها وتقديم المصالح والمنافع الشخصية على أي اعتبارات أخرى.

ولأنه من المفيد بالضرورة لأي قوات مقاتلة أن تقوم بتحديد قوات العدو تحديدا دقيقا، وفهمها جيدا، وفهم طبيعة الحرب كاملة ليتسنى لها كسب الحرب في وقت وجيز، خاصة اذا كانت يقاتل عدوا مثل قوات الدعم السريع المتمردة صديق الأمس، وأطرافا أخرى

مستترة، أو التي تقاتل بالوكالة، المتمثلة في حشد الجنسيات المرتزقة الإفريقية والعربية في الميدان حسب ما بثته الصور والفيديوهات، والمتمثلة أيضا في الحشد اللوجستي والامداد بالمال والذخائر والمستشفيات الميدانية والأسلحة المتطورة، عبر يوغندا وجمهورية أفريقيا الوسطى وتشاد، كل ذلك يتطلب تحديدا وتمييزا واضحا، تستطيع معه القوات النظامية الوطنية تثبيت أقدامها. بات هذا ضربة لازب.

في هذا التحديد ذكر القائد الثالث في الجيش السوداني الفريق أول " ياسر العطا "، من قاعدة وادي سيدنا الجوية في امدرمان، ان دولة معينة في الإقليم تقوم بإرسال إمداد عسكري لقوات الدعم السريع المتمردة، وبتواطؤ مع بعض القادة النافذين في دول الجوار، وصفهم ب-المرتشين. وفي مقابل ذلك تقدم بالشكر لدول بالمنطقة وقال: إنها ساندت ودعمت الشعب السوداني خلال

الحرب.كما تقدم بالشكر لخادم الحرمين الشريفين الملك " سلمان بن عبد العزيز "، وولي العهد الأمير " محمد بن سلمان "، ووزير خارجيته الأمير " فيصل بن فرحان " ، لاهتمامهم بالوصول إلى سلام لوقف الحرب في السودان، كما شكر جمهورية مصر الشقيقة ل-الدعم والإسناد.

وقال في تسجيلات مصورة نشرت على صفحة القوات المسلحة السودانية على موقع (فيسبوك) : وردتنا معلومات من أجهزة المخابرات وقنوات دبلوماسية (وزارة الخارجية)، عن إرسال طائرات دعم عسكري لـــالدعم السريع ، تمر عبر مطارات دول أفريقية بعينها.وحذر في خطاب لمنسوبي جهاز المخابرات بقاعدة وادي سيدنا العسكرية شمال أمدرمان هؤلاء القادة الذين وصفهم ب-المرتشين والمرتزقة، مشيرا إلى أنهم يعملون من أجل مصالحهم الشخصية وليس من أجل مصالح شعوبهم. وأضاف: أي دولة تشارك في دعم وإسناد هذا التمرد تخاف أن

تدور عليها الدوائر، ونذكرهم بخبرة الأجهزة المخاباراتية السودانية في رد الصاع صاعين. [1]

في الحالة السودانية وربما في حالات أخرى مشابهة، فإن المتصور والمتوقع هو أن تمنى الأطراف المقاتلة بالوكالة للجيش النظامي الوطني بهزيمة شنعاء، ليس على الميدان فقط، لكن في كل المنابر الأخلاقية والاعلامية والمنتديات العالمية، لأن خوض هذه الدول الحروب بالوكالة هو نقطة ضعف بداخلها أولا قبل كل شيء، يتمثل في الإثرة وحب الذات والأنانية وتقديم المصالح الذاتية، مهما كان حجم التضحية بالأخلاق القويمة ،والسلوك الراشد، ومهما افترضنا جانب الخداع الاستراتيجي الذي ربما تتستر خلفه، إلا أنه لا يخرج من كونه ضعفا وجبنا من ناحية نفسية سياسية، او من ناحية علم النفس السياسي، وهذه صفات من شأنها أن تؤدي إلى الهزائم لا كسب الحروب بأي حال من الأحوال، مهما إرتكنت تلك الدولة

الإقليمية، إلي قوة متعاظمة وسلاح فتاك، أو إحتمت بقوة عظمى كائنة من كانت.

إضافة يمكن القول أن الإرادة الذاتية لدى الطرف الأول، وهو قوات الجيش السوداني الوطنية، هي أكبر بكثير بطبيعة الحال مما هي لدى أطراف الوكالة وحشود المرتزقة، وهو أمر طبيعي لا دخل للدولة أو السلطان فيه من قريب أو من بعيد؛ ومن الطبيعي أيضا أن تتباين قوة الإرادة زيادة عند الطرف الأول الذي يقاتل دفاعا عن مبادئ وعقيدة، ونقصا عند من يقاتل من أجل حفنات المال والنهب والسلب؛ الذي بلغت فيه جماعات المرتزقة في حرب الكرامة حدا ربما لم تبلغه أي جماعة مرتزقة أخرى مثلها، لا خلق لها ولا قيم، مع هذا فإن ميليشيا الدعم السريع والمرتزقة، إضافة لتناقص الإرادة الذاتية لديها، فهي لا تجد قبولا وارتياحا من كافة السودانيين، وهذا بدوره يزيد من تراجع الإرادة القتالية لديها، فقد وجهت

جماعات المرتزقة والأوباش بنادقها ونيرانها للجيش والمواطن على حد السواء، بغرض النهب والسلب والغنم، بل أنها دفنت الموطنين وهم أحياء في أفظع أنواع جرائم الحرب غير المسبوقة التي ترتكب.

وتتناقص الإرادة الذاتية الدافعة والمحركة للقتال أيضا لدى الطرف الثاني، المدبر للحروب بالوكالة، الذي يضع لها التخطيط ويمدها بالمال والسلاح عن طريق مطارات دول متاخمة، مثل مطار ام جرس في تشاد، تتناقص هذه الإرادة في تقديري، كلما وجدت صلابة ومواجهة قوية من قوات الجيش الوطنية، وهزائم متتالية على الميدان في معادلة صفرية، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية كلما ظهرت أدلة مادية وعينية في الميدان تشير إلى حجم التورط والمشاركة، وقد تم بالفعل جمع العديد من هذه الأدلة العينية التي تؤكد كبر التورط والمساهمة والتخطيط، ولا يخفى بطبيعة الحال أن درجة السرية

التامة ويقظة أجهزة الاستخبارات الأمنية في عدم وقوع وظهور أي أدلة مادية تشير إلى مشاركة الدولة المتآمرة، هو من عوامل استمرار الحرب بنفس الروح الأولى التي قدرت لها، وارتفاع حظها في النصر السريع على حكومة الأمر الواقع، إلا أنه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

مهما يكن من أمر، زيادة أو تناقص المعنويات الدافعة للقتال لدى الطرف الثاني الذي يدير الحرب بالوكالة، تتحكم فيه عدة عوامل داخلية وخارجية ، ومن ثم ربما يكون ميدان الحرب هو مراءة عاكسة لذلك العلو أو الانخفاض، أو مؤشر طبيعي ، أو ترموميتر إن صح هذا التعبير، لقياس الرغبة القتالية، وتحديد مؤشرات النصر أو الهزيمة من ناحية ثانية، فمعدل سرعة الإمدادات الحربية وإنتظامها في فترات زمنية متقاربة، ومحاولات تحشيد أكبر قدر من القوات الأجنبية من غير البلد، أو تفعيل الخلايا النائمة

والطابور الخامس، عن طريق شراء الذمم، والإغراءات المادية العظيمة، فضلا عن انتظام الاتصال المباشر وغير المباشر بالقادة الميدانيين، إن لم يحصدهم الطرف الاول تباعا، أو تحصدهم الاشتباكات البينية التي تحدث على فترات متقاربة نتيجة الاختلافات التي تواجههم في الميدان، أو الطمع في المغانم، أو تفجر النعرات الجهوية والقبلية، أو أي إعتبارات أخرى، هو في مجمله صورة واضحة لارتفاع الرغبة القتالية العدائية لدى الدولة الإقليمية، وبالطبع بطء الإمدادات، وانقطاع الاتصالات، وتأخر المال والمستحقات، هو مؤشر لإنخفاضها لكلا الطرفين: القوات المرتزقة على الأرض، والدولة الإقليمية راعية الحرب في معادلة طردية.

مع هذا فإن من أهم العوامل الداخلية، التي ربما تساعد في قراءة مؤشر الرغبة القتالية، هو المكون العقائدي والأخلاقي للنخبة الحاكمة لدى

كلا الطرفين، ونفس المكون للمجالس المنتظمة خلفهم سواء كان مجلسا عسكريا، أو حاضنة حزبية، فإن كانت النخبة الحاكمة أو المجالس، فاسدة العقيدة والضمير والأخلاق، تكون نتائجها في كافة المجالات بطبيعة الحال، شرورا وضررا وحروبا متواصلة، في كل رقعة من رقاع الأرض، إذا إنطوت على مصالح ومنافع؛ مثالا لذلك الرئيس الأسبق " ترامب"، فقد كان ولا يزال متفردا ومختلفا في مكوناته، إلى الحد الذي يقترب إن لم يصل إلى الخبل والعته، لذا فقد كان لتكوينه الغريب، جزءا كبيرا من سياساته المتخبطة الرعناء في الشرق الاوسط،وعلى ذلك قس.

ولأنه لا يخفى على أحد أن الدولة الإقليمية التي تدير الحرب في السودان بالوكالة، هي متفردة أيضا في مكوناتها، فهي تعتبر من الدول الداعمة للتطبيع بين إسرائيل والدول العربية والإسلامية، أو تعتبر حلقة وصل بينهم، وبهذا الاعتبار اللا أخلاقي

بالمرة ، فإنه يمكن إدعاء ان الحرب الدائر رحاها بين طرفي النزاع في السودان، قد اندلعت بمباركة إسرائيلية توراتية، وتساعد في الخط الذي تقوده الدولة الإقليمية في العالمين العربي والاسلامي.

إضافة لما سبق أن أشرنا إليه من صفة الضعف والجبن، وأنها من أول الصفات التي يمكن اطلاقها على الدول التي تدير حروبا بالوكالة، كما هو في الحالة السودانية، التي يقاتل فيها الجيش النظامي الوطني أرتالا من المرتزقة والأوباش المنضمين لقوات الدعم السريع المتمردة، إضافة، فإنه يمكن أيضا وصف تلك الدول بأنها تفتقد مكون الصراحة والوضوح، لأنها تتصف بصفات الإثرة وحب الذات، والتوسع والنفوذ، إلى الحد الذي يمكن معه التضحية بكل معاني الإخاء والدم والتاريخ المشترك، وينطبق هذا الوصف على هذه الدول، في حال كونها تخوض هذا النوع من الحروب، أو حتى مجرد الحصار

الاقتصادي للدول، وفي التاريخ القريب ما يشير إلى ذلك بدقة.

صحيح ان من أخطاء نظام " البشير " القاتلة التي لا يزال السودانيون يدفعون ثمنها وتبعاتها، ويكتوون بنارها، يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر، هي تكوينه ورعايته لقوات الجنرال (الغائب المنتظر) " حميدتي "، ورغم أن هذه القوات الضارية كانت ضرورة ملحة في وقتها، باعتبارها قوات ردع، لها حاجتها ومجالها، إلا أنها شبت عن الطوق، وفلت عيارها ، إن جاز هذا التعبير ، ولم تلجم لتعود لمسارها ودورها الوطني المنوط بها، حتى صارت مثلها مثل أي ميليشيا تبحث عن أجندتها الخاصة، وتملكت تلك الميليشيا مناجم للذهب، وكونت شركاتها الاستثمارية الخاصة، وراعت تنفيذ طموحاتها، أو طموحات الراعي البديل، المتمثل في الدولة الإقليمية الكبيرة، لذا كان من الطبيعي أن يدفع ثمن هذه الأخطاء القاتلة السودانيين، فنزحوا من

ديارهم، وقتل شبابهم وأشيخاهم، ونهبت القوات البربرية والمرتزقة الهمج المنازل والمتاجر والأسواق، وممتلكاتهم، واحتلت المستشفيات ومحطات المياه ومرافق الكهرباء، وخربت دولتهم، بحجة محاربة الفلول، ويقصد بذلك الفهم الرقيع، القوات المسلحة السودانية وجيشها الباسل!

وفي الوقت الذي يخوض فيه الطرفين حرب مدن وشوارع، في العاصمة السودانية الخرطوم، فإن الطرف الثاني كان يعتمد على أساليب الكر والفر، لإنهاك واستنزاف الطرف الأول، وهذا ما من شأنه أن يجعل مهمة القوات النظامية الوطنية عسيرة بعض الشيئ، إذ أنها تحاول قدر الامكان تفادي وقوع ضحايا من المدنيين.

صباح السبت 15 نيسان/ابريل، تحولت مخاوف السودانيين إلى واقع، واندلعت حرب البرهان حميدتي في شوارع العاصمة الخرطوم وأنحاء أخرى في البلاد، مخلفة مئات القتلى وآلاف الجرحى، وسط دمار واسع للمواقع الاستراتيجية السيادية

والعسكرية، لم تنج منها الأحياء السكنية والمشافي والمرافق المدنية [2] وفي هذا النوع من الحروب تستطيع الدولة الإقليمية أو الأطراف المعنية بتأجيج الصراع والنزاع، أن تتمكن بسهولة من إمداد الطرف الثاني، حتى تصل الحرب الى نهايتها المتمثلة ليست في مصلحة السودانيين، لكن في السيطرة على الموارد الطبيعية والجغرافية الإستراتيجية !

وإذا افترضنا وسلمنا بصحة الرواية عن ضلوع الدولة الإقليمية الكبرى في دعم القوات والميليشيات المتمردة، فقد ذكرت صحيفة "وول ستريت جورنال" الأميركية في تقرير لها، أن دولة (إقليمية) تقدم دعما عسكريا لقوات الدعم السريع، التي تقاتل الجيش السوداني، وسط قلق أميركي من هذا الدعم، وقالت الصحيفة إن طائرة شحن (تمتلكها الدولة الإقليمية) هبطت في مطار أوغندي بداية يونيو/حزيران الماضي، تأكد أنها كانت تحمل أسلحة

وذخيرة، في الوقت الذي كانت تظهر فيه وثائق رسمية أن الطائرة تحمل مساعدات إنسانية (من هذه الدولة الإقليمية) إلى اللاجئين السودانيين، ونقلت الصحيفة الأميركية عن مسؤولين أوغنديين قولهم، إن الطائرة (الإقليمية) سمح لها بعد ذلك بمواصلة رحلتها إلى مطار أم جرس شرق تشاد، وأكدوا أنهم تلقوا بعد ذلك أوامر من رؤسائهم بالتوقف عن تفتيش الرحلات القادمة من (الدولة الإقليمية)، وجرى تحذيرهم من التقاط أي صورة لتلك الطائرات. [3]

إذا سلمنا بصحة الرواية، في تفسير كل ما جرى، فهذا سيكون من ناحية ثانية خصما على هذه الدولة الإقليمية، وعلى مكانتها في المجتمع الدولي، بعد أن بثت وسائل الإعلام المرئية، مشاهد القتل والتمثيل والتصفية والتطهير العرقي التي تقوم بها الميليشيات والمرتزقة، بل دفن المواطنين الأبرياء وهم أحياء، وبعد أن شاهد العالم بأم عينه عمليات النهب والسلب والسرقة التي تقوم بها

الميليشيات وأرتال اللصوص من كل جنس ولون، فهل على أكتاف هؤلاء ومن شابههم، تتم التضحية بالسودانيين، من أجل الموارد الطبيعية والجغرافية، والاستفادة من موقع السودان الإستراتيجي على البحر الأحمر ونهر النيل، والوصول إلى احتياطات الذهب السودانية الهائلة، ومن أجل أجندتها الخاصة وما خفي منها ؟!.

ولأن نتيجة الحرب تنتهي دائما بمنتصر وخاسر مهزوم بين الطرفين المتقاتلين في الميدان، فإن الطرف الذي يقاتل إنابة عن الكفيل هو خاسر على الأرجح في كلا الحالتين، سواء كان منتصرا أو مهزوما، فإذا كان منتصرا، لن ينال من المكاسب والمغانم شيئا، ويكفيه فقط بعد كل ما جرى، شرف أنه منتصر وكفى، هذا إذا لم تتم وتدبر حيل ومؤامرات لإبعاده من المشهد نهائيا ، بعد أن أكمل دوره، ولا أحد يعلم أي منقلب ينقلبون.

بعد هذا وختاما، يسوغ لي أن اقتبس.. يا عبد الله. نحن كما ترى نعيش تحت ستر المهيمن الديان. حياتنا كد وشظف؛ لكن قلوبنا عامرة بالرضى، قابلين بقسمتنا ال قسمها الله لنا. نصلي فروضنا ونحفظ عروضنا، متحزمين ومتلزمين على نوايب الزمان وصروف القدر. الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلى اللحد. القليل ال عندنا عملنا بسواعدنا ما تعدينا على حقوق إنسان ولا أكلنا ربا ولا سحت. ناس سلام وقت السلام وناس غضب وقت الغضب. ال ما يعرفنا يظن إننا ضعاف إذا نفخنا الهواء يرمينا، لكننا في الحقيقة مثل شجر الحراز النابت في الحقول.. [4]

المصادر:

[1]_محمد أمين ياسين، مساعد البرهان يتهم دولة إقليمية بدعم قوات " حميدتي " عسكريا ، موقع صحيفة الشرق الأوسط، 28 نوفمبر/تشرين الثاني 2023، (تاريخ الدخول: 10 ديسمبر/كانون الأول2023) :
http://tinyurl.com/bddk22kz

[2]_ميعاد مبارك، حرب المدن بين الجيش السوداني والدعم السريع تضع البلاد على حافة الهاوية، موقع صحيفة القدس العربي، 22أبريل/نيسان 2023، ) تاريخ الدخول: 10 ديسمبر/كانون الأول 2023) : http://tinyurl.com/5b5adzfd

[3]_وول ستريت جورنال: الإمارات أرسلت أسلحة إلى الدعم السريع بدلا من المساعدات إلى السودانيين، موقع الجزيرة نت، 10اغسطس/آب 2023، (تاريخ الدخول: 10 ديسمبر/كانون الأول 2023) :
http://tinyurl.com/24542mdt

[4]_الطيب صالح، رواية بندر شاه ضو البيت، ( بيروت: دار الجيل، ط. 1،1997)، ص 123

**المحتويات:**